مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

من فكر السجون وأدبه

الإصـــدار الخامس عشر

على درب الحلبي

طارق عبد الفتاح يحيى
سجن جلبوع

على درب الحلبـي

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (15)

على درب الحلبي

المؤلف: الأسير المجاهد/ طارق عبد الفتاح يحيى

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة – فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: محرم 1443هـ
أغسطس - آب 2021م

رقم الإيداع: 1570 / 2021

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾

صدق الله العظيم

[الأحزاب: 23]

إهداء

• إلى والدي الحبيب ووالدتي الصابرة المحتسبة.

• إلى إخواني وأخواتي.

• إلى الشهداء الكرام الذين سبقونا إلى العُلا

والذين رووا بدمائهم الزكية الطاهرة أرض فلسطين المباركة.

وفي مقدمتهم الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي أبو إبراهيم.

والشهيد مهند الحلبي مُفجِّر انتفاضة القدس.

• إلى شهيد لقمة العيش الذي قضى عفيفًا ابن خالي إيهاب يحيى.

• إلى روح الشهداء مجدي ونظير وسامر حماد.

سائلاً ربي سبحانه أن يتغمدهم جميعًا برحمته وأن

يسكنهم فسيح جنانه.

أهدي إليهم جميعًا هذا الجهد المتواضع.

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19]

إن من أعظم نعم الله علينا منفعة وعون الإنسان لأخيه الإنسان، ومن هنا أتقدم بالشكر إلى أخي وصديقي العزيز محمود عارضة الذي مازال يقبع خلف قضبان سجون الاحتلال والمحكوم بالسجن المؤبد قضى ما يزيد عن 25 عامًا داخل السجون، والذي لولا جهوده وإصراره وحثه عليّ للكتابة ونقل تجربتي لما خرج هذا العمل إلى النور، فله مني كل الشكر والمحبة على كل الجهود التي بذلها من أجلي.

كما أتقدم بالشكر إلى صديقي وأخي العزيز رومل عطوان الذي ساعدني في كتابة هذا الكتاب.

وكذلك الشكر الجزيل لكل من
ساعدني على إخراج هذا العمل.

مقدمة

قد يظن من أسرنا أنه قتلنا وقتل روح الإبداع والعمل فينا، لكن المؤمن الورع الذي آمن بالله وقضائه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وبفضل من الله ومنته تحولت هذه المحنة (محنة السجن) إلى منحة ربانية، وبدأت أعمل وأجِّد وأستغل أيامي وسنين عمري داخل السجن في العمل والإبداع، وبدأت رحلة الإبداع بكتابة هذه الكتاب (على درب الحلبي) مسترشدًا ومُقتديًا بأخي الشهيد البطل مهند الحلبي، عندما فتح لنا هذا الباب من أبواب الجهاد في سبيل الله.

لقد هدفت من كتابة كتابي إلى نقل تجربتي الشخصية لإخواني وأخواتي خارج السجن؛ لإطلاعهم على مجموعة من الأمور الهامة التي جمعتها في كتاب واحد، تحدثت فيها عن قصتي وعمليتي التي نفذتها خلال انتفاضة القدس.

وتحدثت فيها أيضًا عن التجربة الاعتقالية بشكل مُفصل وخاصة أيام الاعتقال الأولى وتجربة التحقيق والعصافير وأساليبهم، وعن الزنازين والعزل الانفرادي، وتحدثت عن السجن وخاصة سجن جلبوع، وعن حياة الأسرى داخله وداخل السجون الأخرى، ولقد تطرقت خلال الكتاب إلى مجموعة من القضايا الهامة والتي تتعلق بحياة الأسرى داخل السجون خاصة الأمراض الخطيرة التي تصيب نفوس عدد لا بأس به من الأسرى مثل حب الظهور وحب الأنا والتي قتلت كثيرًا من الأسرى وسرقت من أعمارهم سنين طويلة.

كما تطرقت في روايتي إلى قضية هامة يعيشها أبناء شعبي في داخل السجن وخارجه ولا يزال لها الأثر الكبير على حياة شعبنا المجاهد المناضل وهي قضية الانقسام الداخلي التي يعيشها الإخوة الفرقاء (فتح وحماس)، وعن الآثار التي تركها هذا الانقسام على شعبنا في الضفة والقطاع.

لم أعتمد في روايتي هذه على أي مرجع، إنما كان اعتمادي على تجربتي الشخصية وعلى مشاهدتي اليومية لحياة الأسرى، ونقلت التصور للقارئ الكريم من خلال التجربة المباشرة لحياة الأسر ومعاناة الأسير، وتمكنت من إنجاز هذا العمل منذ عام تقريبًا، ولكن صعوبة النقل والاتصال وتضييق إدارة السجون كان لها الأثر الكبير في تأخير خروج هذا العمل إلى النور.

أود أن أنوه إلى أمرين هامين في روايتي، وهما أن معظم الأسماء المذكورة خلال الكتاب هي أسماء حقيقية، وهناك بعض الأسماء وردت هي أسماء مُستعارة، ولكنها انسجمت مع الحالة التي تحدثت عنها خاصة قصص العزل والتحقيق التي كانت تصادفني خلال تنقلي بين السجون وفي طريق المحاكم، أما الأمر الآخر فهو قصة الأخ الأسير محمود كميل، هذا الأخ قصته حقيقية، ولقد أُعجبت بها وأدهشتني؛ لذلك قمت بنقلها كما هي بكل أمانة.

أسأل الله ﷻ أن يتقبل مني هذا العمل، وأن ينفع الله به أبناء شعبي وأُمتي، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

والحمد لله رب العالمين

أخوكم الأسير/ طارق عبد الفتاح يحيى

سجن جلبوع

1

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا حيث حطت رحالنا في سجن جلبوع، كنتُ في غاية الترقب لرؤية هذا الواقع الجديد، لم تكن لي تجربة سابقة في الأسر، وليس لدي أدنى فكرة عن حقيقة وطبيعة السجن، وليس من تصور أو رؤية عن حياة الأسرى وكيف يمارسون ويدبرون شؤون حياتهم، كان المشهد في خيالي جزءًا من الصورة النمطية التي تعرضها التلفزيونات العربية من خلال الأفلام والمسلسلات، غرفة صغيرة مكتظة بعدد كبير من الأسرى، لا يخرجون منها إلا يوم الإفراج.

دخل الباص الذي أقلنا من زنازين الجلمة إلى غرفة التفتيش والفحص، وأثار استغرابي أن حافلة الأسرى يتم فحصها وتفتيشها في الذهاب والإياب، أثناء الدخول والخروج من وإلى السجن، وسرعان ما زال استهجاني عندما علمت من أحد الأسرى أن هذا الأمر يتم بإجراء أمني، وحدث ذلك بعد أن قام عدد من الأسرى قبل سنوات طويلة بمحاولة الهرب من خلال التسلق بأسفل البوسطة، والتجربة التاريخية تقول إن هؤلاء الناس ليسوا على النحو الذي تجري عليه الأمور عندنا نحن الفلسطينيين.

غادرنا غرفة تفتيش المركبات، ثم دخلنا أخرى ولم أكن أعلم ما هو التالي، وأين تكون المحطة القادمة وماذا ينتظرني هناك، وفجأة توقفت البوسطة وفتح أفراد وحدة التنقل في إدارة مصلحة السجون (النحشون) الباب وطلبوا منا النزول مكبلي الأيدي والأرجل، وبدأوا بفك قيود الأرجل دون الأيدي، ثم أدخلونا إلى غرفة الانتظار (أمتناه)، ومرةً أخرى أُثِيْرَ استغرابي ودُهِشْتُ لسلوكهم هذا، نحن داخل السجن وداخل غرفة الانتظار ومع ذلك القيود ما زالت في أيدينا.

سألتُ لماذا فعلوا ذلك؟ فأجابني أحد الأسرى، وقبل أن يُجيبني جاء أحد السجانين من (النحشون) وبدأ بفك قيود أيدينا من خلف الباب، أخرجتُ يدي من شباك صغير وقام بفك يدي، واستمعت لصديقي الذي لم تتجاوز فترة لقائي الأول معه ساعات معدودة، لماذا لم يفكوا قيد يدي عندما فكوا قيد أقدامنا؟ وكانت إجابته بلسمًا يداوي الجرح.

أخبرني عن سبب هذا الإجراء كما أخبرني عن سبب تفتيش البوسطة، وقال إن البطل معتز حجازي ابن مدينة القدس أثناء عزله في زنازين العزل الانفرادي قام بطعن أحد الضباط؛ لأنه شتم النبي ﷺ، سُررتُ كثيرًا خصوصًا وأن الأسير المحرر معتز استشهد قبل عامين انتقامًا للأقصى، وقد قام بإطلاق النار على المستوطن المتشدد يهودا غليك وأصابه إصابات قاتلة، لكنه لم يمت. وقد أخبرني صديقي أن الشهيد الفارس معتز قبل أن يطلق النار على المستوطن المتشدد، قال له: يا غليك أنت عدو للأقصى، ولذلك اليوم أنا جئت لأقتلك.

كنا أربعة أسرى داخل الأمتناه، سمعتهم يتحدثون عن الأسرى والسجن، وكان كلامهم خليطًا بين العربية والعبرية، كلمات لم أسمعها من قبل: «كانتينا، دوبير، شاويش»، وتضاربت المشاعر داخل نفسي، من جهة شعرتُ بالاطمئنان؛ لأنني خرجتُ من التحقيق، ومن جهة أخرى انتابني خوف مختلف حيث إنني في عالم مختلف، ولا يشبه العالم الذي جئت منه.

سألني أحد الأسرى: هل أنت جديد؟ فأجبته: نعم، وبدأ يسألني عددًا من الأسئلة، كم مكثتَ في التحقيق؟ ومن أين أنتَ؟ وما اسمك؟ وغيرها من الأسئلة والتي اكتشفت فيما بعد أنها أسئلة يتم تداولها بشكل عفوي بين الأسرى، وهي شيء من الروتين العام، ومع ذلك ترددت في الإجابة عن أسئلته، خصوصًا أنني بدأتُ أسمع بشكل كبير عن ظاهرة الجواسيس (العصافير)، وهو مصطلح يطلقه الأسرى على الجواسيس الذين يتم استخدامهم لاستدراج الأسرى والإيقاع بهم أثناء التحقيق وبعده.

إلى اللحظة هذه لم يقنعني أحد لماذا وكيف يقع أغلب الأسرى ضحايا لهذه الظاهرة، إذ يمكث الأسير عشرات الأيام والليالي وهو يتعرض لأقسى الأساليب وأشدها عنفًا، ولا يستطيع المحقق أن يحصل منه على اعتراف، ولكن بكل بساطة يقدم كل ما لديه عندما يتم إدخاله إلى غرفة العصافير. قلة التجربة وغياب الوعي والتوجيه هما من أهم الأسباب التي تؤدي لوقوع الأسرى ضحايا لهذه الظاهرة، ولقد اعتمدت المخابرات على غرف العصافير للحصول على المعلومة من المقاومين، وللأسف الشديد أنها نجحت نجاحًا باهرًا ومنقطعَ النظير في ذلك.

المخابرات تعتمد بشكل أساسي على هذا الأسلوب للحصول على المعلومات من الأسرى، وتلجأ لهذه الوسيلة؛ لأنها فشلت فشلًا ذريعًا؟ فالحقيقة تقول والتجربة التاريخية تنطق بهذه المسلمة، وتقول إن المحقق ورغم كل الإمكانيات المادية والتجربة الطويلة دائمًا وفي الأغلب الأعم يفشل في إرغام الأسير بالاعتراف سواء كان ذلك بأسلوب الترغيب أو الترهيب.

قال لي أحمد: دخلت التحقيق ومن اللحظة الأولى تم عزلي عن بقية الأسرى خصوصًا مَنهم أصحاب التجارب السابقة، فأنت قد تلتقي بأسير أثناء العزل، لكن لا يمكن إلا أن يكون صاحب تجربة أولى في السجن، والسبب واضح لذلك مكثتُ في الزنازين حوالي 70 يومًا وغيري أقل من هذه المدة، ولم يأخذوا مني كلمة واحدة رغم أنهم جاؤوا بالشهود والأدلة، ومارسوا معي كل الضغوط النفسية والمادية وكانت كلها مقدورًا عليها؛ لأني أعلم أن النصر صبرُ ساعة، وصبر ساعة ولا ندامة كل ساعة.

خلال تلك الفترة أدخلوا عليّ كثيرًا من الجواسيس ولكني كنت أعرفهم وأكشفهم، لم ينالوا مني شيئًا، وفي اليوم السبعين جاء رجل مخابرات بلباس شرطي وقال لي: هذه الجولة الأخيرة لك وستكتب الإفادة الأخيرة وستوقع عليها، كتبتُ بخط يدي وقلتُ إنني لا أعرف شيئًا وأنا مظلوم وغيرها من الكلمات، في تلك اللحظة دخل إلى قلبي نوع من الطمأنينة، ثم قام بإدخالي إلى زنزانة وبداخلها أحد الأسرى لم أعرفه من قبل، وما زاد من اطمئناني أنه بدأ يحذرني من الجواسيس ويقول لي قصصًا عنهم.

قال لي: لا تثق بأحد حتى لو كان أباك، والغرفة مليئة بالجواسيس وأجهزة التنصت، ولم يسألني أي سؤال يثير حفيظتي، فازدادت ثقتي به، قال لي إنه أنهى التحقيق وقريبًا سيتم نقله للسجن، وبعد أن حدثتُه بما حدث معي وأنني وَقَّعْتُ على الإفادة عند الشرطي طمأنني بأنني قد أنهيتُ التحقيق وسأنتقل قريبًا إلى السجن.

في اليوم التالي جاء الشرطي وقال لي: جهزوا أمتعتكم للنقل، وفرحت فرحًا شديدًا وتم نقلي إلى سجن عسقلان، دخلنا إلى القسم واستقبلنا الأسرى هناك بالترحاب، سررت كثيرًا بالغرفة التي نزلتُ فيها وزاد من سروري أن الأخ الذي رافقني من التحقيق يعرف عددًا من الأسرى وله مكانةٌ كبيرةٌ بينهم، كانت الغرفة نظيفةً وكذلك الساحة، والعمل يجري بشكل منظم والكل حسب وظيفته، هذا العنصر وهذا المسؤول وهذا الممثل، كنتُ أستمع إلى التلفاز وأتابعُ الأخبار وأقرأُ الصحف، ونجلس كل يوم لقراءة القرآن ونصلي جماعة ونقيم الليل، كان الأسرى أشبه بالأنبياء.

بعد عدة أيام جاء أحد الإخوة وقال لي: أنا المسؤول الأمني وأريد أن أتحدث معك على انفراد، بدأ يسألني عن نشاطات وحدثني الكثير من الحقائق ورافقها بكثير من الأسماء والأرقام وكأنه يعلم كل شيء، قال لي: أريد منك أن تتحدث عن اعترافاتك في التحقيق وبماذا لم تعترف؛ لأن الإخوة في الخارج ينتظرون منا ردًا، ونريد أن نتأكد من أمانتك، في البداية استهجنت طلبه ورفضت أن أكتب شيئًا، فأشار أحمد لي وقال: اطمئن، هؤلاء إخواننا ولا تقلق، تحدثت وكتبت كل ما أعرف وزدت على ذلك.

2

في اليوم التالي جاء ممثل التنظيم وقال لي: يوجد لك زيارة إلى الأقسام، خرجت من القسم وفجأة جاء النحشون وقيدوا أيدي ورجلي ووضعوني داخل السيارة وانطلقوا بي، بدأت الشكوك تراودني ولم أهدأ حتى حطت الحافلة (البوسطة) بنا في سجن الجلمة، عندها أُسقط بيدي، ثم قادوني إلى مقر التحقيق، وإذا بأحمد الذي رافقني بالزنزانة يجلس بجانب المحقق وبيده الأوراق وشريط فيديو بالصوت والصورة، عندها علمتُ أنني كنتُ ضحية، ضحيةَ الجهل والتخلف، ضحية غرفة العصافير، وها أنا سأدفع الثمن، المسؤولية عن ذلك تقع على عاتق الجميع دون استثناء،

النُخب المثقفة التي عاشت هذه التجربة وهذه الظاهرة من خلال تجربة الاعتقال تتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية؛ لأنها لم تكتب بشكل وحجم يساوي ويعادل هذه الظاهرة، ولذلك تقع مسؤولية كبيرة على عاتق التنظيمات والفصائل والقيادات الفلسطينية، وفيما بعد السلطة لاسيما أنها تسيطر على جهاز التربية والتعليم وتملك وسائل الإعلام الرسمية، والتي من خلال هذه المجالات بمقدورها أن تقدم الكثير على هذا الصعيد، وتشمل المسؤولية كذلك كل مؤسسات المجتمع الفلسطيني، ولا أستثني وسائل إعلامنا، والتي تستطيع من خلال المسلسلات والأفلام والبرامج أن تقاوم هذه الظاهرة، لكن مع الأسف الشديد إعلامنا مُجند لأجندة مختلفة ويحمل مشروعًا مختلفًا، وربما في أحيان كثيرة مُعَادٍ لمشاريع الأمة وقضاياها، في هذه الجزئية لا أعفي أحداً من المسؤولية، الكل يشارك في هذا الجرم وهذا الجرح الذي ينزف كل لحظة.

صحيح أن هذه المعضلة مرتبطة ارتباطًا كبيرًا بالظواهر الاجتماعية خصوصًا القيم والعادات السيئة التي تُمجد الذات وتعزز في نفس الفرد حب الشهوة والجاه والسعي بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لنيل المناصب والكراسي، وهنا تكمن مسؤولية الخبراء والاجتماعيين وعلماء النفس التربوي ومن خلالهم يتم محاربة هذه الظواهر الاجتماعية التي تنخر المجتمع. إن مجتمعنا وثورتنا يمتازان بعبادة الفرد لذاته، فتراه يبحث عن كل الوسائل ليستعلي على الناس ويَظهر بمظهر الزعيم والقائد والمسؤول حتى لو كان ذلك على حساب قضاياه الكبرى، وقد رأينا في السجن المئات من الأسرى ولمجرد التلميح والتصريح بدغدغة الذات من خلال الألفاظ

المنفوخة يكشف ما في قلبه وجعبته من أسرار دون تردد أو تفكير، وليس على سبيل المبالغة عندما نقول إن الغالبية العظمى من الأسرى تعترف في غرف العصافير وليس في غرف التحقيق ،وما من وسيلة يستخدمها العملاء لنيل الاعتراف أكثر من التركيز على مدح الذات واحتواء الأسير بكل ألفاظ التبجيل والتفخيم حتى تحولت كل حروفنا إلى أحرف تفخيم.

أثناء حديثي مع أحمد قاطعنا أحد الإخوة واكتشفت فيما بعد أنه رفيق في حزب الشعب، سألني الرفيق العزيز أبو علي والذي أُكن له كل الاحترام، هل أنت جديد؟ وإلى أي التنظيمات تنتمي؟ وبعد أن علم أنني أميل إلى المشروع الإسلامي نصحني بالدخول إلى غرف الجهاد الإسلامي؛ لأنه لا يوجد في هذا السجن سوى تنظيمات منظمة التحرير الفلسطينية وحركة الجهاد الإسلامي.

سُررتُ كثيرًا بهذه النصيحة من الرفيق أبو علي على الرغم من أنني فكرتُ بالدخول عند الإخوة في حماس والتي لم يكن لي أي سابقة بالارتباط بها، بل على العكس كانت محاولتي الأولى في الخارج والتي بذلت من أجلها جهدًا كبيرًا هي الانتماء لحركة الجهاد الإسلامي، لكنني لم أُوفق بسبب الضغط المتواصل على حركة الجهاد من الاحتلال وأجهزة أمن السلطة وحملة التحريض والتشويه المتواصلة ضدها من خلال اتهامها بالتشيع والتبعية لإيران.

لم أتردد لحظة بقبول نصيحة الرفيق أبو علي ولم أندم على هذا الاختيار، فقد اكتشفت فيما بعد أن هذه الحركة تحمل مشروعًا كبيرًا

للأمة، وأثبتت مسيرتها التاريخية أنها خيار جدي وحقيقي، فهي الحركة الوحيدة التي لم تلوث أيدي أبنائها بدماء الأشقاء ولم تنحرف بوصلتها عن طريق الجهاد، وتُمثل محط إجماع وطني بمشروعها الإسلامي في فلسطين عدا أنني اكتشفت وبعد قراءة طويلة في تاريخها وفكرها أنها لم تكن كما قيل مشروعَ تشيعٍ إيراني في المنطقة، وأن هذه الحملة المسعورة وللأسف الشديد منبعها وأساسها فئة حزبية، ولا تخدم سوى أعداء الأمة الذين يتربصون بها الدوائر، ويريدون إضعاف محور المقاومة، وهذه مناسبة لدعوة شباب الأمة بأن لا يكفوا عن البحث عن الحقيقة، وأن لا يكونوا هدفًا للإشاعات والأضاليل التي تهدف لحرف البوصلة، وما من وسيلة لذلك أعظم من رفع مستوى الوعي من خلال القراءة والاطلاع.

ما كاد ينتهي الحديث بيني وبين الرفيق أبو علي حتى جاء السجان وسأل: أين طارق يحيى؟ فأجبته على الفور أنني موجود حيث كنتُ متشوقًا لرؤية الأسرى، أخرجني من غرفة الانتظار وسألني عن أمتعتي، فقلت له: لا أملك شيئًا. لقد كان يعلم أنني جديد وربما كان يعلم أنني ذاك الذي تم اعتقاله في مدينة العفولة، ولم يكن يملك شيئًا سوى هاتفه الجوال ومبلغ 150 شيكلًا، وربما يعلم أيضًا أنه تم تجريدي من ثيابي أثناء اعتقالي، هو يعلم ويعرف ذلك، ولكنه أدى دوره على أكمل وجه وكأنه على ثغرة من الثغور ولا يريد أن يؤتى من قِبَله، فتشني وكأنني أحمل سكينًا أو سلاحًا ولو كنت كذلك لعثر عليها؛ لأنه يؤدي واجبه على أكمل وجه ودون تقصير.

أذهلني بإجراءات التفتيش وحينها خطر ببالي كيف تسير الأمور

عندنا وعندهم، هم على هذا النحو الذي يعبر عن حديث النبي ﷺ:«لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» [رواه البخاري]، ونحن كالماشي في الظلمة، يدور حول نفسه دون معداته.

أدخلني السجان إلى غرفة صغيرة وطلب مني خلع ملابسي، فترددت لطلبه وانتابني خوف وشعرت بأنني قد أتعرض للضرب نتيجة رفضي لطلبه، لم يطلب مني خلع ملابسي الداخلية واكتفى بتفتيش البنطال والحذاء.

علمت فيما بعد أن هذا الإجراء جزء من الاتفاق مع الحركة الأسيرة والتي قبلت به مرغمة في مرحلة التراجع والانهيار، فالاتفاق في مرحلة القوة لا يشبه الاتفاق في مرحلة الانهزام والتراجع. قادني السجان إلى غرفة أخرى بداخلها مكتب صغير ويجلس خلفه سجان آخر، قام بتصويري وأخذ بعض التفاصيل الشخصية عني من أجل إبلاغ الصليب الأحمر بقدومي للسجن، بعد ذلك قادني إلى غرفة أخرى، وكانت أكبر من سابقتها وخلف مكتبها ضابط وعلمت أنه ضابط الاستخبارات بالسجن وقد قابلني بابتسامة عريضة، ثم بدأ يسألني حول انطباعي وشعوري بعد العملية وبمجيئي للسجن، ثم سألني عن انتمائي التنظيمي، فأجبته أنني غير مُنظم وأريد العيش في ظل حركة الجهاد الإسلامي، طلب مني العيش بهدوء وعدم افتعال مشاكل، كنت أتوقع أن يطلب مني التعاون معه؛ لأنني أعلم أن ضابط الاستخبارات يحاول تجنيد أكبر عدد ممكن من الأسرى وأن قلة هم من لا يتعرضون لهذا التحرش الأمني، فالأسير

مُستهدف في كل لحظة وتتم مراقبته ومتابعته على مدار الساعة، والهدف من ذلك انتظار اللحظة المناسبة لمحاولة تجنيده، فهم لا يدخرون جهدًا لذلك، ويعملون ليل نهار لإنجاز هذه المهمة، وهذه هي المهام الكبرى الموكلة لضابط المخابرات في السجن.

3

أنهى ضابط المخابرات لقاءه معي ودعا السجان وقال له: اذهب إلى قسم (1)، قادني السجان إلى القسم ودار حديث بيننا وعلمت أن اسمه طارق من شمال فلسطين ومن الطائفة الدرزية، وسألني: هل أنت منفذ عملية العفولة؟ فأجبته بالإيجاب، قال لي: لقد شاهدتك على التلفاز وقد تعرضت لضرب كثير، فهل أصابك جرح كبير؟ قلت له ليس سوى هذه الندوب من أثر قيود الحديد التي أُحكمت على يدي وتركَت أثرًا واضحًا.

كنت أمشي وأسابق الريح؛ لأنني على شوق كبير لدخول القسم، كان الممر المؤدي للقسم مليئًا بالقضبان الحديدية والجدران الإسمنتية العالية.

وصلنا إلى مدخل القسم ودخل أحد الإخوة وسألني عن اسمي وإلى أي تنظيم أنتمي، قلت له أريد العيش عند الجهاد، فرحب بي من جديد وجاء الإخوة الأسرى يرحبون بي، الكل عانقني وصافحني ورحب بي، وبعد دقائق قادني أحد الإخوة إلى إحدى الغرف؛ لأنه رأى ملامح الإرهاق والتعب على وجهي، قال لي: ارتح قليلًا في الغرفة.

تفاجأت حينما شاهدت الغرفة تحمل معالم ومقومات البيت، فيها التلفاز والمطبخ وأسّرة النوم، هي غرفة للضيوف وهي صف المدرسة في أوقات التعليم، تتحول لمطبخ في أوقات الطبخ وإلى غرفة للنوم عندما تحين ساعته، فيها تلفاز ومراوح للتهوية وطاولة للدراسة والأكل، وتحتوي على كل أدوات المطبخ. خرجت مرة أخرى من الغرفة وبدأ الاخوة يتجمعون حولي وانهالوا عليَّ بالأسئلة، وأثار انتباههم تلك الندوب والجروح الخارجية على يدي من أثر القيود الحديدية التي تم تقييدي بها لحظة اعتقالي، الكل كان يتفحصني ذاك بيده وذاك بعيونه وآخر يلتف من الخلف، الجميع أبدى استغرابه؛ لأنني ما زلت على قيد الحياة لاسيما وأنهم رأوني لحظة الاعتقال على شاشات التلفاز وأن السياسة المتبعة مع من يشارك في المهمة الجهادية هي التصفية الجسدية حتى يتم تطويق هذه الظاهرة الجديدة وبالتالي القضاء عليها. لقد مارسوا القتل كما فعلوا من قبل، إنهم يظنون واهمين أن التوسع في القتل والدمار والعقاب الجماعي يردع المظلومين والمحرومين الذين يعانون ليل نهار من عشرات السنين.

قتلوا الأطفال العُزل وكبار السن بصُحبة الأمن وقد رأينا أمثلة كثيرة لهذه الوحشية اللامتناهية، امرأة في الستين من العمر تُقتل بدم

بارد لمجرد أنها أثارت شكوك أحد الحراس، عبد الفتاح الشريف يُعدم جهارًا أمام كاميرات التلفاز بعد أن أصيب إصابة متوسطة وكان مُلقى على الأرض، لقد أجهزوا عليه وهم يعلمون أنه لا يشكل أي خطر عليهم، إنهم تلاميذ شارون الذي قال: إن العربي الطيب هو العربي الميت.

كانت كلمات الأسرى تثير استغرابي؛ فقد شاهدوا على التلفاز لحظات أسري، ولكني الآن متواجد بينهم على قيد الحياة، فقالوا حظك من السماء فالله رعاك وحفظك خصوصًا أنك أُصبت إصابة خطيرة وقليلًا ما ينجو من يفعل ذلك. ونحن في غمرة الحديث وضع أحد الإخوة يده على كتفي وقال لي: لقد أحضرت لك بعض الأغراض والاحتياجات الأساسية التي تحتاجها في الوقت الراهن، ثم سألني: هل تريد حلاقة شعرك؟ فأجبته بلا تردد: نعم، وشكرته على ما قدمه لي، وتلك العادة المتبعة بين الأسرى أصبحت جزءًا من العُرْفِ الاعتقالي، عندما يحضر أسير جديد تتم تغطية كل احتياجاته الأساسية ويتعاون الجميع في ذلك دون تمييز بين أحد وكل تنظيم يتكفل بأبنائه، وفي أحيان كثيرة يشترك الجميع بهذا الدور، وهذه الظاهرة هي من أهم قيم التضامن الأخوي بين الأسرى، ما من أسير يبيت وجاره جائع، وليس هناك من يكتسي وغيره عريان مع وجود تفاوت طبيعي بين الأسرى في هذا المجال، فالقادم الجديد ليس مثل الأسير القديم، والذي يزوره الأهل ليس مثل من لا يزار.

توجه بي أحد الإخوة إلى غرفة داخل الساحة وكانت تحوي مغسلة للأسرى ومكتبة، وفي الزاوية محلقة صغيرة، تناولت الحديث مع الحلاق وهو زميل لي في الغرفة، كان يشبه كل الأسرى في أسئلته وأحاديثه، أنهيت

الحلاقة مع مجيء أمير القسم، أعتذر لعدم وجود متسع في غرفة الجهاد الإسلامي الوحيدة، وقال لي: ستعيش مؤقتًا في غرفة عند الإخوة في فتح، قلت له: لا بأس في ذلك وكلنا إخوان. دخلت غرفة (15) ورحب بي طباخ الغرفة وكان وحده في الغرفة؛ لأن وجبة الطعام اليوم من مسؤوليته وواجبه، فالغرفة التي لا يوجد بها طباخ، يكون الطبخ من واجب الجميع، أرشدني إلى الحمام، قال لي بعد أن أنهيت الحمام: هذا مكان نومك. بدأت أرتب أغراضي، ثم سأل هل أنت جائع؟ أجبته: أكاد أموت من الجوع، تبسم ثم قام بتحضير وجبة سريعة من الأفوكادو.

تناولتُ الطعام وأنا أستذكر الحقيقة التي عبر عنها الممثل السوري الشهير خالد تاجا في مسلسل التغريبة الفلسطينية عندما أحضر له ولده مسعود من بستانهم الذي صادره الاحتلال برتقالاً. قال مسعود لأبيه ولم يبلغه أن هذه من بستانه: كيف طعم البرتقال يا أبي؟ أجاب الوالد: هذا برتقال وبرتقال حيفا برتقال! إنه لا يشبه برتقال البلاد، فتبسم مسعود وعلم أن المذاق هو مذاق النفس والبال الهادئ. أنهيت طعامي وخرجتُ من جديد للساحة، فالكل كان ينتظرني ويريد أن يسألني، فأنا أول الغيث بعد جفافٍ طويلٍ.

4

قبل الهبَّة الجماهيرية التي قادها مهند الحلبي ورفاقه كانت الحركة داخل السجون قليلة، فالداخلون قلة وكذلك الخارجون، ولهذا السبب حظيت باهتمام من قبل الأسرى، وكان السؤال المتكرر على لسان الجميع هو: هل تم كسر كتفك؟ والدافع لهذا السؤال كانت الصورة التي تم التقاطها لي أثناء اعتقالي، حيث بدا لكل من شاهدها أن كتفي قد كُسرت. فقد كان مستوى العنف من قبل المستوطنين في العفولة أكبر بكثير مما يتصور العقل، لقد كان استخدام القوة والعنف مبالغًا فيه. وهكذا هم يؤمنون بأن القوة المفرطة تصنع الأمن وتخلق ميزانًا من الردع، بحيث

تُرهب الخصم وتُحدث في نفسه هزيمة كبرى قبل أن تقع المعركة، هكذا اعترف شارون عام 1989 بأن التوسع في القتل والعقاب الجماعي يُحدث هزيمة نفسية في القلب وتدفعهم نحو الهروب والاستسلام، لقد خاب ظنه، إن الضغط لا يصنع فينا إلا قابلية الانفجار، والظلم الواسع والقهر المستمر يرفع من مستوى وعينا وينمي في قلوبنا روح التضحية والمقاومة، وإن أسلوب الجنود المروع وهم ينهالون بالرصاص على طفل يحمل سكينًا لا يولد فينا سوى مهند الحلبي.

لقد حاولوا كسر ذراعي كما حاولوا كسر إرادتي ونفسيتي في بلدتي العريقة من خلال ممارستهم للعنف اللامحدود واعتقال الأطفال والشيوخ، لكنهم خابوا وسيخسئون إن شاء الله في كل مرة كما يتجرعون كأس الهزيمة كل يوم مع أطفال ونساء القدس والضفة.

لقد كانت حكاية كسر ذراعي منتشرة بين الأسرى، ولم يصافحني أحد إلا سألني عن ذلك، ومن العجب أن والدي في زيارته الأولى في السجن وجه سؤاله الأول لي: هل كسروا ذراعك عند لحظات الاعتقال؟ دار حديث طويل بيني وبين الإخوة الأسرى، لكنني كنت شارد الذهن أُفكر في حياة الأسرى ربما لأنني لا أرى سوى الحديد والقضبان والأبواب المغلقة التي تفتح كل نصف ساعة من أجل الدخول والخروج للساحة، يخرج الأسرى الساعة السابعة والنصف للعدد في الصباح، ويدخلون وقت الظهيرة الساعة العاشرة والنصف، ثم يخرجون بعد نصف ساعة حتى الساعة السابعة مساءً.

الأسرى لا يتناولون سوى وجبتين من الطعام وإدارة السجون توفر لهم ثلاث وجبات، الغرف مقسمة بين التنظيمات كل حسب حجمه وحماس مفصولة عن فتح، والفصل حدث مؤخرًا في سجون الشمال بعد خطف المستوطنين الثلاثة في يونيو (حزيران) 2014م، أما فصل الجنوب فقد كان مبكرًا وحدث بعد الانقسام بين فتح وحماس في الخارج، والأسرى لم يشاركوا في الاقتتال الداخلي، وليس لهم علاقة لا قبل ولا بعد بذلك، ولكن شظايا الانفجار أصابتهم وكان شرر الانقسام كالقصر.

واليوم الفجوة بين فتح وحماس وللأسف كبيرة جدًا. شرد ذهني بعيدًا عمن حولي ولم أنتبه إلا على صوت مكبرات الصوت حيث طلب السجان منا الدخول بسبب انتهاء وقت الفورة. أثار انتباهي سرعة الاستجابة للأمر، فقد انتظم الأسرى فورًا، الكل وقف على باب غرفته، لم أر من قبل هذه الجدية وهذا المستوى من الالتزام والانضباط فأنا تعودت أن أشاهد في مدارسنا السلوك غير المنضبط للطلاب، كان الدخول إلى الصفوف وما زال يكلف الأساتذة عناءً كبيرًا، ما هذا الذي أراه اليوم؟! هل لأن المصلحة العليا تتطلب السرعة في دخول الغرف حتى لا يتم الانتقاص من هذا الانجاز الذي جاء بفعل تضحيات آلاف الأسرى ومعاناتهم الطويلة؟ لا شك أن الحياة تختلف في السجن، والعوامل المؤثرة في حياة الناس تتشابه وكذلك الأدوار.

إن للقوة أثرًا في النفس لاسيما إن كانت تمارس بأيدي عدو، ومن هنا ينبع أساس الانضباط، وإلا بماذا أفسر سلوك كثير من الأسرى حينما يكون التردد في الاستجابة للقرار إن كان مصدره الذات، تدخل إدارة

السجن لعدد الصباح في الساعة الخامسة ونصف فيكون الجميع على قدم وساق، يسبق ذلك نداء الصلاة بقليل فلا يستجيب إلا القليل.

يدعو الأخ الموكل باللجنة الثقافية للجلسات الثقافية والعلمية فيتكئ الكثير من الأسرى ويتكاسلون، لكنهم لا يترددون لحظة واحدة إن دعاهم السجان لدخول الغرف لأي سبب كان، وقد أجابني أحد الأسرى على هذا الاستهجان، وعلمتُ أن واقع الحركة الأسيرة اليوم ليس كما هو بالأمس.

دخلتُ إلى الغرفة مرة أخرى وتعرفت على إخوة جدد، وبدأ يتسلل إلى نفسي شعور غريب، فأيقنت أنني في هذه الساعات القليلة تعرفت على عالمي الجديد بكل تجلياته.

بعد عدد المساء وُضعت وجبة العشاء، وكانت مكونة من فاصولياء بيضاء بالإضافة إلى الأرز الأبيض. أنهينا الأكل وقام أحدهم بغسل أواني الطبخ، وآخرون يشطفون الأرض، رأيت أن الأسرى يقسمون أنفسهم بين طباخ وعمال تنظيف داخل الغرف، والأدوار تتنقل بين الجميع، بعد أن يتما تنظيف الغرفة جلسنا جميعًا حول مائدة من المكسرات والمشروبات وبدأوا يرحبون بي، إنها عادة من عادات الأسرى يتم من خلالها الترحيب بالقادم الجديد والتعرف عليه، دار حديث طويل في الغرفة، وكان المطلوب مني الإجابة عن كل سؤال.

من أهم الأسئلة التي وجهت لي في تلك الليلة ولاحقتني حتى اللحظة: كيف نفذتَ العملية؟ وما هو الدافع الأساسي لذلك؟ كان المطلوب مني الحديث عن الذات والمشاعر النفسية التي أحملها، باختصار

كان المطلوب مني الحديث عن (الأنا) و(الأنا) في السجن مذمومة، مذموم مدح الذات والحديث عن النفس والبطولات الذاتية، وهذه السمة من أهم الصفات المحمودة لدى الأسرى، وفي ذات الوقت عجيبة وغريبة، فهم عرب يعشقون الذات والمديح ولا يعرفون سوى (الأنا)، فكيف يكون الأسرى عربًا ويكرهون من يتحدث عن نفسه، حتى إنهم يذمون من يتحدث عن نفسه، وهناك بعض الشخصيات المشهورة والمعروفة لدى الأسرى والتي تنتمي إلى هذه الفئة المذمومة من الناس، تحدثوا عن خالد أنه طلب من القاضي حكمًا مؤبدًا بدل الحكم الذي طُلب له وهو 20 عامًا حتى يقال إنه محكوم مؤبد، وذاك أحمد يتحدث أنه قتل وأصاب، وفي الحقيقة لم يفعل شيئًا، وعندما اعترف بالتحقيق قال له المحقق: أعرف أنك تكذب ولا تقول الحقيقة، إن شهرة المدح وحب الذات وحب الشهرة دفع ثمنها الكثير من الأسرى نتيجة حصائد ألسنتهم.

لقد دفعني الإخوة دفعًا للحديث عن نفسي وكيف تمت العملية وكيف تم اعتقالي؟ لم أعرف أن منهم من يتربص بي ليكتشف شخصيتي، وهل أنا ممن يحبون الظهور وفي سبيلها لا يُبالي بأن يهدم البيوت ويبيع الأوطان، أرهقوني بالأسئلة وبدأت أقص عليهم الحكاية التي بدأت مع بائع الخبز ابن العشرين عامًا الذي تجهز للموت كمن يتجهز للقاء حبيبته، هكذا قال لي ابن عمي يوم خروجي.

هناك في قرية العرقة غرب جنين نشأتُ وترعرعتُ وكنتُ الخامس بين الإخوة والأخوات السبعة، الوالد فلاح متواضع محدود الدخل والأم ربة بيت تحمل بين جنبيها قلبًا كبيرًا يسع فلسطين وجغرافية العالم، بيت

مثل كل بيت فلسطيني، إما بيت شهيد وإما بيت أسير وإما بيت جريح، كان لأبي حظ في السجن.

أمي وأبي من جيل ما بعد الهزيمة نكسة 67، يحلو للبعض أن يسمي هذا الجيل جيل الوعي حيث أخذ الشعب الفلسطيني في هذا الجيل ولأول مرة زمام المبادرة من يد قيادة الثورة في الخارج، حيث فشلت في المهمة الملقاة على عاتقها وهي تحرير فلسطين، وكان قراره التاريخي بأن فجر الثورة وفجر انتفاضة الحجارة عام 1987م، فالأجواء التي قدر الله لي فيها الحياة كانت مشحونة بالحس الوطني والأخلاقي والشعور الكبير بالظلم المتواصل الذي لا يُرى له نهاية، لقد قدر الله على والديّ إنهاء حظهما من العلم، ولكن الواقع المرير الذي عاشه والدي كما عاشه ويعيشه كثير من أبناء الشعب الفلسطيني؛ حال دون تحقيق أحلامنا، إنهم يسرقون الحلم ويحطمون الأمل ويزرعون في قلوبنا اليأس لكي نرحل ولكنهم خابوا وخسروا.

بذل الوالد من أجل تعليمنا جهدًا كبيرًا، فتفوقنا في الدراسة وانتظم أخوان لي في الدراسة الجامعية وتخرجا منها، وبعد أن كان الأمل معقودًا عليهما خاب ظن أبي، فالوظيفة في بلادنا وتحت الاحتلال مثل المعدن الفريد، الاحتلال يُمثل السبب الأبرز في هذه المعضلة الكبرى حيث يقضي على أي فرصة للتنمية الاقتصادية للشعب الفلسطيني.

يريد من شبابنا أن يتحولوا إلى جموع غفيرة من العاطلين عن العمل حتى لا يبقى أمامهم سوى خيارين أحلاهما مر، إما الذهاب إلى

الداخل المحتل للعمل، وبذلك يكسب عمالة رخيصة تدعم اقتصاده، وإما الهجرة من البلاد. وهناك سبب لا يقل خطورة عن العامل السابق وهو أن الوظيفة في بلادنا وفي ظل الفساد الاجتماعي والسياسي خصوصًا ذلك الانقسام مرهونة بالواسطة والرشوة ومقرونة في أحيان كثيرة بالانتماء الحزبي والتنظيمي؛ لذلك لم يكن هناك من خيار أمام إخواني سوى التوجه لسوق العمل في الداخل المحتل حيث إن أجر العامل في الداخل المحتل ثلاثة أضعاف أجر العامل في الضفة، وهذه معضلة أخرى للأسف الشديد، فالعامل في بلادنا لا يحصل على كامل حقوقه ولا على الحد الأدنى من الأجور، وهكذا يتحول معظم شبابنا لأيدي عمل رخيصة في سوق العمل الصهيوني عدا التعرض اليومي للتحرش الأمني من مخابرات العدو التي تسعى في كثير من الأحيان لتجنيد الشباب للعمل في الأجهزة الأمنية الصهيونية، وهذه القضية من أهم الأهداف التي سعى العدو الصهيوني لتحقيقها من خلال السماح للشباب الفلسطيني بالعمل في الداخل المحتل.

لقد أحس أبي بالعبء الذي تعجز عن حمله الجبال خصوصًا أن أخي الذي يكبرني تفوق في الدراسة الثانوية ويريد الالتحاق بالجامعة، لكنه استشعر ثقل الحمل واختصر الطريق وذهب للعمل في الداخل المحتل.

أكملت دراستي الثانوية وحصلت على معدل 84٪ في الفرع العلمي وفاقت هذه النتيجة كل التوقعات، وكانت الفرصة كبيرة، لكنه خالط هذه الفرصة أسى كبير من الوالدين لاسيما أبي، فقد كان كمن وقع بين نارين، الإنجاز الكبير الذي حققته وغياب القدرة المادية المتاحة للدراسات العليا،

وكانت المبادرة الفورية مني وقلت له إنني لا أنوي إكمال التعليم الآن، وعندما يحين الوقت وتتهيأ الظروف لن أتوانى عن الالتحاق بالجامعة.

وكان لقراري وقع كبير في النفس لاسيما أن الوالد استشعر منه مقاسمته الهم والمسؤولية، فقد أرفقت موقفي هذا بأنني سأعمل معه جنبًا إلى جنب كي أعينه على نوائب الدنيا، وكذلك أثار قراري استغراب كثير من الأصحاب والأصدقاء القريب منهم والبعيد، لقد نبع قراري من أعماق نفسي وكنت على يقين بأن اللحظة التي سأعود بها إلى التعليم لن تكون بعيدة إن شاء الله.

وبعد أيام قليلة عقدت العزم وتوجهت للداخل المحتل وبالتحديد إلى قرية الكسيفة البدوية، وهي من قرى شمال فلسطين التي لم تهجر عام 1948م، وربما كان للتركيبة السكانية الدور الأهم في بقائها حيث يسكنها أغلبية من البدو، فبدو الشمال كان قرار مشاركتهم بالجيش الصهيوني مبكرًا وقبل قيام دولة الكيان كما يذكر المؤرخ الصهيوني إيلان بابيه في كتاب التطهير العرقي، ويتحمل البدو مسؤولية طرد سكان الجليل المسلمين حيث شاركوا في أعمال العصابات الصهيونية التي استهدفت السكان المسلمين، وهنا لابد من التذكير بمسألة مهمة وهي أن بدو شمال فلسطين تعتبر مشاركتهم في المؤسسات الأمنية الصهيونية أكبر بكثير من بدو الجنوب، وأن بدو الجنوب مازالت ظاهرة التجنيد منبوذة بينهم بعكس بدو الشمال الذين يفخرون بالانتساب إلى وحدات الجيش وقوى الأمن، وربما يكون عامل استهداف البدو من قبل العدو الصهيوني ومحاولة طردهم وتجميعهم في بعض القرى هو السبب في هذه الظاهرة وارتفاع الحس الوطني والديني لديهم.

5

كانت المهنة الأولى التي مارستُها هي العمل كمساعد خباز، لم يكن هذا الخيار عن سابق تجربة وإنما كان المجال الأول الذي أُتيح لي الفرصة للعمل فيه. اجتهدت في العمل وتعلمت المهنة بإتقان، ورغم ذلك لم أستمر طويلًا في هذا العمل حيث جرى خلاف بيني وبين صاحب المخبز على الأجر الذي أتقاضاه فهو لا يصل إلى الحد الأدنى.

لقد كان يستغلني أسوأ استغلال؛ لأنني لا أملك تصريح عمل، وقد استغل هذا الأمر كما يفعل كثير من أرباب العمل الجشعين بكثير من العمال عدا أنني لا أجد مسكنًا يؤويني هناك ولم يعمل على توفير مسكن

لي سوى أنه أرشدني إلى خرابة (بيت مهجور) للسكن فيه، وقد تعرضت لحادثة في ذات السكن وكان لها دور في قرار توقفي عن العمل، وأثناء النوم كنتُ كثيرًا أشعر بأن أحدًا يراقبني وكنت أسمع أصوات أقدام تأتي كل ليلة متوجهة نحوي، ورغم أنني كثيرًا ما فتشت وبحثت عن مصدر تلك الأصوات، لكنني لم أجد أحدًا ولا أثرًا.

حدثت صاحب المخبز بذلك فقال لي: اسكن داخل المخبز. وبالفعل سكنت هناك ولم تمضِ ليلة واحدة حتى بت أسمع كل ليلة طرقًا شديدًا على باب المخبز يوقظني من نومي العميق في منتصف الليل، لقد كانت الطرقات شديدة لدرجة لم أستطع فيها النوم، بعد حدوث كل هذا عزمت على ترك العمل دون أي تردد وحملت نفسي وعدت إلى القرية، وفي ذات اليوم جاء ابن عمي وعرض عليّ العمل معه في مطعمه المتواضع، وافقت بشرط أنه عندما تحين لي الفرصة للعمل مرة أخرى في الداخل المحتل سأترك العمل عنده، اتفقنا على هذا الشرط، وفي اليوم التالي ذهبت للمطعم وبدأت عملي الجديد الذي لم يكن لي كذلك تجربة من قبل به.

كانت وظيفتي الأولى هي إيصال الطلبات إلى الزبائن في المكاتب وأماكن العمل، ومضت الأيام ورافقها كثير من المواقف الطريفة منها المحرج وتارة منها المضحك والغريب، وأذكر أحد المواقف التي لن أنساها أبدًا لما سبب لي ذاك الموقف من إحراج؛ فقد جاءنا طلب إلى أحد المراكز وقمت بتحضير الطلبية بعد أن أبلغني ابن عمي بمكان الطلب وهو مركز نسائي للتجميل، توجهت للمركز على وجه السرعة وعندما وصلت قرأت على باب المركز يافطة تشير أن المكان مفتوح، دفعت الباب بقدمي

ودخلت وإذا بي بين سرب كبير من النساء والفتيات وقد أصابتهن الدهشة والحيرة وكأنهن لم يرين رجلًا من قبل، ولم تمضِ لحظات وإذا بطفل بعمر السابعة يمر بجانبي فسألته: أين المسؤولة عن المركز؟ لم أكمل سؤالي وإذا بمديرة المركز قد أصابها الذهول تدفعني بيدها للخروج، بدأت تسألني من الذي أدخلك؟ واعتذرت لها عما بدر مني، وقلت لها: لم أعرف أنه مركز للتجميل وخاص بالنساء.

قبلت اعتذاري ووعدتها أن لا تتكرر مثل هذه الظاهرة، وعُدت للمطعم ولم أخبر أحدًا بما حصل. وفي اليوم التالي بعث لي ابن العم وسألني عما حدث، قلت له إن جزءًا من المسؤولية عما حدث يقع عليك، فأنت لم تخبرني أنه مركز خاص بالنساء، ولو كنت أعلم لما حدث ما حدث أمضيت ما يقارب الشهرين في المطعم حتى جاءني عرض عمل في مخبز في مدينة أم الفحم في الداخل المحتل، لم أتردد بالقبول وأبلغت ابن عمي عما أنوي ولم يعارض، فالاتفاق بيننا كان هكذا، فرحت بهذا العرض، فمجال العمل هو ما أرغب فيه وهو صناعة الخبز، والمكان في مدينة أم الفحم وهي ومن أقرب المدن إلى جنين، وأهلها خير ناس ويشبهوننا في عاداتهم ولهجتهم، والأجر أفضل.

صحيح أنني سأجازف بالدخول للداخل المحتل، لكن ما يواسيني أن آلافًا مؤلفة من العمال المساكين يعملون في ذات الظروف ويتعرضون لذات المحن والصعاب فلا مكان يؤويهم ولا ضمانة لأرواحهم فهم ملاحقون من الشرطة وحرس الحدود؛ لأن الأغلب يعمل بلا تصاريح العمال يعانون معاناة شديدة في الداخل ولا أحد يأمن منهم على نفسه، فلا

يكاد يمضي يوم إلا بإصابة أحدهم أو موت أحدهم، وقد توفى قريب لي أثناء عمله، وكان وقع المصيبة على الأهل كبير جدًا، ومن أهم الأسباب التي أدّت لوفاته غياب القبعات الوقائية أثناء العمل، فلم يكن رب العمل مهتمًا كثيرًا بوسائل الأمان للعمال؛ لأن الرقابة معدومة ولا يوجد محاسبة، والعمال مخالفون على الأغلب ولا يملكون تصاريح.

ذهبت وقد كنت أعلم مقدار الخطر الذي سيلحق بي نتيجة هذا القرار، فالدخول ليس بالأمر السهل وقد أتعرض لأخطار كثيرة، هناك من يتم اعتقاله ويخسر الكثير؛ لأن الطريق عبر التهريب ثمنه كبير بالنسبة لعامل يعتمد على عمله من أجل قوت يومه.

الثمن المطلوب للمهربين يساوي عمل عدة أيام، ومن العمال من يتعرض لإصابة أثناء تسلقه الجدار أو النزول عنه فالعملية خطيرة ولا تخضع لأي معايير علمية أو أخلاقية؛ فالمهرب همه الأول والأخير جني المال، وللأسف الشديد هذه الظاهرة منتشرة ولا تخضع لأي رقابة أو محاسبة من قبل السلطات المحلية لاسيما أن الحديث في أحيان كثيرة عن أن بعض المهربين مرتبطون مع الشاباك لمعرفة من يدخل ومن يخرج، وإبقاء هذه الظاهرة تحت السيطرة غير المباشرة، وأن المهرب لا يوفر أدنى معايير السلامة أثناء عمله، فالسُلم الذي يتم وضعه على الجدار من أجل تسلقه من الطرف الآخر يكون في أغلب الأحيان باليًا ولا يصلح للعمل، والحبل على الجهة الأخرى يحمل ذات المواصفات، فكثيرًا ما يقع العمال أثناء صعودهم أو نزولهم، وفي أحيان كثيرة يتم ترك المصاب في مكانه ولا تقدم له المساعدة؛ لأن همّ الجميع مغادرة المكان قبل دخول حرس الحدود، من

حسن حظي أن عملية العبور قد تيسرت ووصلت للمحطة الأخيرة.

لقد كانت سيارة خاصة مخصصة لخمسة ركاب، صعدنا على متن السيارة وكنا نقارب الـ 30 شخصًا، منّا من هو تحت الأقدام ومنّا من هو واقف بلا مكان يجلس عليه، بدأنا بالمسير وبدأت الأفكار تراودني، لو أن حادثًا وقع، ماذا سيحدث لكثير منا؟! أمضينا في الطريق ما يقارب ست ساعات كانت كل ساعة كمائة ساعة، وصلنا إلى أم الفحم الساعة السابعة صباحًا يوم الجمعة، ذهبت للمكان المخصص لنا وكان قرب سكن الأصحاب وأبناء العمومة، لم يكن يوم الجمعة يوم عمل، لذلك لم أتوجه لمكان العمل، وجاء اليوم التالي توجهت للعمل وتفاجأت أن أجهزة العمل تختلف عما أعرف، وقد واجهت صعوبة بالتعامل مع هذه الآلات، وسرعان ما تغلبت على هذه الصعوبة، فكما أبدعت في العلم أبدعت في العمل.

كنت أحب عملي وأكره الكسل، هكذا تعلمت من أبي أن يأكل الرجل من كدّ يده، وقد أثنى رسول اللهﷺ على الرجل الذي يأكل من كدّ يده، لذلك بذلت جهدًا كبيرًا في التعرف على تفاصيل هذا العمل، وفي أوقات الفراغ أقضي وقتي متصفحًا على مواقع التواصل الاجتماعي وخصوصًا الفيس بوك، وهذه ظاهرة جديدة منتشرة في مجتمعاتنا العربية عامة والمجتمع الفلسطيني خاصة، كنت أتابع كل جديد.

صحيح أن هذه الوسائل تعتبر سلاحًا ذا حدين، لكنْ هناك مجال كبير جدًا للاستفادة منها، فهي وسيلة من أهم وسائل المعرفة لمن أرادها

والعكس صحيح، وللأسف الشديد أن الإحصائيات تشير إلى أن العرب في الغالب يستخدمون هذه الوسائل لتصفح المواقع الإباحية وبرامج التسلية والترفيه وملء الفراغ حيث يخضع فيها المستهلك لعبودية شركات التجارة والاستثمار التي لا يهمها سوى الربح عدا الغايات التي تقف خلفها تلك الشركات والتي تهدف لحرف الشباب العربي والمسلم عن الاهتمام بقضاياهم الكبرى مثل التنمية والحرية والاستقلال، وهذا الأمر لا يخفى إلا على جاهل.

لقد بذلتُ جهدًا بأن تكون هذه الوسيلة للنفع، وحاولت استغلال هذه الوسائل لمتابعة قضايا العرب والمسلمين في العالم، صحيح أن مأساتنا في فلسطين تتجاوز كل المآسي، لكن ذلك لا يعني أن لا نشارك المظلومين في كل مكان شعورهم بالظلم والقهر سواء كانوا مسلمين أم غير ذلك، فالظلم ظلم مهما كان، والدين يفرض عليك أن تقف بجانب المظلومين بغض النظر عن ديانتهم، فيجب أن نحزن على الحرب الأهلية في جنوب السودان كما نحزن على الحرب الأهلية في سوريا، وأن نحزن عما يحدث للسود في أمريكا كما نحزن على المسلمين في بورما، لكن ظلت مأساة شعبنا تطغى على كل المآسي، حيث إن مآسي العالم تنتهي ومأساتنا لا تنتهي، وكما يقول المثل الروسي: المأساة التي تنتهي خير من التي لا تنتهي أبدًا، ونحن لم تنتهِ مأساتنا منذ 100 عام.

وهكذا وبعد أشهر من العمل في المخبز جاءت الشرارة التي أشعلت القدس بنارها لتحول اهتمامي نحو القدس والأقصى.

6

إنه يشبه الفتى الذي هزَّ الشرق الأوسط سامر حماد، هكذا كان مهند الحلبي ابن جامعة القدس الذي أشعل لهيب الثورة في القدس بدمه الطاهر الزكي، كان مهند مثال المغوار البطل الذي صنع المعجزات وهو لا يملك من الإمكانيات سوى الإيمان العميق بعدالة القضية، أغار مهند الحلبي على قطّاع الطرق استجابة لنداء القدس وحرائر فلسطين بسكينه الصغيرة؛ ليصنع معجزة هزت كيان الاحتلال وأحيت لدى الأمة الأمل من جديد، لقد تناقلت كل وسائل الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي صور مهند الحلبي وهو يطعن بسكينه الصهاينة ويغنم سلاح أحدهم ثم

يبدأ بإطلاق النار فيقتل اثنين من الحاخامات ويصيب آخرين، لقد قدم مهند شجاعة منقطعة النظير تنادي الشعب الفلسطيني أن سيروا على ما سار عليه مهند.

لقد تحول مهند الحلبي إلى أسطورة وأصبح مُلْهِمًا لكل الشباب الذين ساروا على ذات الطريق والذي جاء ليستر عورة السلطة التي قمعت المقاومة، وهكذا تسارعت الأحداث وبدأت أفواج من الشباب والفتيات والأطفال الصغار تنهض نحو الأقصى؛ ليفدوا بدمهم الطاهر مقدسات الأمة وعرضها المغتصب.

مهند الحلبي محطة تاريخية توقفت فيها الإنسانية أمام هذا النموذج الفذ منقطع النظير، قال محمد حسين هيكل عن الرجال العظام: «هناك رجل يصنع التاريخ ويقود أمته نحو التقدم والنمو والازدهار وهناك رجال تصنعهم الأمم، فسيرتهم في الحقيقة هي تاريخ أمة وليس تاريخ رجل». لقد كان مهند بحق صانعًا للتاريخ، لكن مهند شأنه شأن الكثير من عظماء الأمة الذين طمرتهم ظواهر التخلف والانحطاط، فاليوم يعلو شأن السفلة والسفهاء ويحط فيه شأن الكبار والعظام، الأمم المتقدمة تُعلي من شأن الرجال الذين يحملون همّ الأمة أمثال مهند الذين يعيشون ويموتون من أجل قضاياهم الكبرى، ونحن اليوم نباهي بما يسمون _نجوم الأمة_ من ممثلين وراقصات ومغنيات لا غاية لهم سوى تحطيم ثقافة الأمة، ونشأة جيل يحمل بين جنبيه جاهلية الاستعمار، وهذا ليس للعموم؛ ولكنه مبني على الأعم والأغلب، فالناظر إلى إعلامنا العربي بكافة أشكاله تتجلى أمامه هذه الحقيقة.

تقدم مهند بدمه ليراكم إرثًا حضاريًا عظيمًا مجبولًا بدماء الشهداء ومداد العلماء والمثقفين. لقد كانت عملية مهند زلزالًا أصاب الأمة في عمقها التاريخي ليحيا فيها عمر وعلي وصلاح الدين، لقد زلزلني مهند كما زلزل أصحاب الضمير الحي. مهند حاكى صلاح الدين وقال لنا بسكينه ومسدسه المسلوب من خصر مغتصبيه إن النماذج التاريخية قابلة للتكرار، فهل أصابت سهام مهند قلوب أحبته؟!

لقد التقط الأطفال الراية واستوعبوا رسالة مهند، فكانوا نِعم الخلف لخير سلف، وقد أصابني ما أصابهم ولامس مهند شغاف قلبي فتشوقت لمحاكاة البطل ابن الرابطة الإسلامية (الإطار الطلابي لحركة الجهاد الإسلامي) في جامعة القدس. خمسة أيام مرَّت بعد استشهاد مهند حين صعدت القطار الذي يسير نحو الأقصى وكانت أعظم على نفسي من الجبال، جال في خاطري كثير من الأفكار دون توقف، وانشغل البال بلا انقطاع، وظل القلب يخفق وازدادت دقاته حتى ذهب النوم مني، وهكذا ومع استمرار أفواج الشهداء التي تمضي في طريق انتصارها للأقصى ومحاولة التمرد على الواقع المخزي والمرير الذي تمر فيه الأمة العربية عامة والشعب الفلسطيني خاصة.

زادت في نفسي روح الجهاد والشهادة ما دفعني أكثر في المُضي في ذات الطريق، فالأمل بدأ يكبر وحالة اليأس بدت وكأنها سحابة صيف انقشعت وزالت، وعاد الشعب الفلسطيني من جديد ليجدد شبابه روح الثورة وليثبت للعالم أن القضية لن تموت وأن وراءها مطالبًا حقيقيًا لا يثنيه أحد عن تحقيق آماله؛ لأن قضيته عادلة ومقاومته مشروعة.

ترددت في البداية وقلت في نفسي إنني لست أهلًا لهذه المهمة فالأمور العظام كما يقول الشيخ الغزالي تنأى عن حملها الناس المهازيل، وإنما هي لرجال عظام تجاوزت اهتماماتهم حدود مصالحهم الشخصية.

لم يسبق لي أن حملت سكينًا لذات المهمة، ولم أفكر في حملها يومًا حتى للدفاع عن نفسي أمام أي مُعتدٍ ولم يخطر ببالي ذلك، فقد عشتُ حياة بعيدة عن الشجارات العائلية أو شجارات الأصحاب مع أن هذه الظاهرة هدمت في سبلها الجيل الصاعد، وهذه حقيقة مُرة لابد من الاعتراف بها، فنحن اليوم نعيش في غربة عن قيمنا وثقافتنا، وقد تسللت الفردية المقيتة للنفوس وبات الفرد يبحث عن مصالحه الشخصية بكل الطرق والوسائل بغض النظر عن شرعية هذه الطرق والوسائل. فانتشرت الفوضى وعمَّت البلوى نتيجة لذلك وبات السلاح بكافة أشكاله أداة لحسم خلافاتنا الداخلية، وتحول من وسيلة لمحاربة الاحتلال إلى وحش ينهش المجتمع الفلسطيني، فلا يكاد يمضي يوم إلا ونسمع فيه عن حادثة قتل أو محاولة قتل أو إصابة أو ضرر يصيب النفوس.

لقد كانت السكين خياري؛ لأن الخيارات الأخرى معدومة وكما كانت خيار كل الاستشهاديين الجدد، فالسلاح الناري بعيد المنال والوصول إليه مليء بالعقبات والصعاب ولا يسهل الوصول إليه؛ لأن تجار السلاح يترددون كثيرًا في بيعه، فإذا كانت الحاجة والدافع لشرائه الفخر والمباهاة واستخدامه في الحفلات والأعراس والشجارات العائلية فلا بأس في ذلك. وفي حال ظهرت نية بأن هذا السلاح سيتم استخدامه لمقاومة الاحتلال فلا سبيل للوصول إليه وقد يتم التبليغ عنه، والسلاح يملأ المدن والقرى الفلسطينية، وباتت مهمته لا تخفى على أحد، وسبيل الوصول إليه غير

ميسر للمقاومين، فإن ملكت ثمنه الباهظ فلن تجد من يجرؤ على بيعه لك خصوصًا إن كنت مقربًا من حماس أو الجهاد الإسلامي، ومن قال إن التنظيمات الإسلامية تملك القدرة على توفير السلاح لمن أراد القتال فهو يجانب الصواب ولا يقول الحقيقة، فلم يعد هناك وجود لخلايا عسكرية، والتنظيمات لا تملك القدرة على تشكيلها، فمن غاب عن عين الاحتلال لاحقته أعين السلطة الفلسطينية، وهذه الأخيرة تقمع المقاومة تحت حجة الانقسام والخوف من سيطرة حماس على الضفة الغربية، وهذه الحقيقة عبَّر عنها الجيش الصهيوني عبر وسائل إعلامه خلال حرب غزة الأخيرة حيث قال: «أذهلتنا السلطة بأدائها الأمني، والقاصي والداني يعلم». وفي أثناء الهبة الجماهيرية عندما أرادت حكومة نتنياهو قطع المصادر المالية عن السلطة عارض الجيش والشاباك ذلك، من أجل ذلك كانت السكين خياري الذي لا خيار سواه.

بقيت مشغولاً في هذا الهاجس، هاجس التجربة الأولى وهواجس أخرى لا تقل أهمية عنه، كيف سأُطعن؟ وفي أي مكان؟ وما هي العواقب؟ هل هي الشهادة أم الاعتقال؟ تملكتني الحيرة في أغلب الأحيان، وكان الواجب المقدس يقضي على حيرتي.

رافق ذلك تتابع الأخبار عبر الفيس بوك عن استشهاد فتى واعتقال فتاة، ثم استشهاد أخرى واعتقال أخريات، وقبل أن أحزم أمري وأتخذ قراري النهائي جاء الخبر الذي قصم ظهر البعير ودفعني لعقد العزم والانضمام لهذا الركب الطاهر، ركب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كما قال الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، فإذا بخبر يقول: استشهاد الفتاة هديل الهشلمون من الخليل والحُجَّة أن مستوطنًا صهيونيًا

طلب منها خلع حجابها، فرفضت طلبه ثم قام بإطلاق النار عليها فاستشهدت على الفور أثار هذا الخبر موجة هائلة من الغضب في نفسي لم يخفف من حدتها إلا عزمي على الثأر لها ولكل شهدائنا الأبرار.

كانت تلك الحادثة شرارةً فجَّرت في نفسي بركان الغضب، بركان أُجِّجَ مِن حوادث الطعن والاغتيال السابقة، لكن هذه الحادثة كانت الحاسمة، فالاعتداء والقتل سبقه اعتداء على الشرف العربي، وهذا شرفنا وكرامتنا، فكيف نسكت ونحن نرى بأم العين كيف تنتهك الحرمات، وفي اليوم التالي استشهد شاب آخر بعد أن لاحقه المستوطنون في الشوارع وكان رافعًا يديه يعلن استسلامه لهم، وفجأة سيارة حرس الحدود الصهيوني يطلقون النار عليه دون أن يشكل عليهم أي خطر، وقد شاهد ملايين الناس هذا الحادث على شاشات التلفاز ومواقع التواصل الاجتماعي فعزز هذا المشهد خياري وزاد من إصراري، قررت أن تكون عمليتي يوم الخميس.

جاء الخميس بعد ترقب طويل وكانت الأجواء مشحونة بالصور التي لا تنقطع، لقد تحولت فلسطين كلها إلى حصب من جهنم، ما من يوم إلا ويسقط شهداء، منهم من قاد سيارته واقتحم بها محطة يقف بها المستوطنون، وآخر يهاجم مجموعة من الجنود بسكينه، تأتي نشرة الأخبار محملة بالأخبار من كل المدن والمستوطنات، وفي كل حين خبر جديد ينبئ بعملية أخرى وأخرى.

توجهت لعملي في المخبز كعادتي ولم ألفت انتباه أحد بما يختلج في الصدر وبما أنوي القيام به وإلى أي الاتجاه سأتجه، كنت أتصرف بشكل

عفوي وطبيعي مع أن الأمر خطير وفيه قرار بالموت أو الاعتقال، ليس من السهل أن يتخذ المرء قرارًا مثل هذا ويعيش يومه كأنه يعيش أبدًا.

مضى يومي الأخير في المخبز ويداي تعملا بمهارة وقلبي وعقلي خارج المكان، انتهى عملي في الساعة الواحدة ظهرًا، توجهت إلى مكان سكني وتفاجأت بوجود ابن عمي حيث لم تكن عادته، دخلت الحمام لأستحم ولم يأخذ ذلك وقتًا طويلًا.

لبست أجمل الثياب وأفضلها وغمرتها بكثير من العطر الفواح، كان حالي وكأني أتجهز للزفاف، وكان كذلك لكن ليس الزفاف للزواج وإنما للقاء الله والأحبة. بدا الاستهجان على وجه ابن عمي لما أفعل وقال لي: ليس من عادتك الخروج بعد العمل، فإلى أين أنت ذاهب؟ وهذا السؤال الذي كنت أتخوف منه لحظة دخولي للسكن، أجبته بكل هدوء وقلت له: إنني على موعد مع حبيبتي وأنا ذاهب للقائها، لم يصدقني واعتبرها مزحة، قال لي: شكلك لا يعجبني، فقد زاد من شكوكه واستغرابه أنني طلبت منه ايصال مبلغ 2000 شيكل لابن خالي، فقد استلفت المبلغ منه من قبل لحاجة خاصة، قال لي: لماذا لا تعطيه المبلغ بنفسك؟ قلت له: أخشى أن أبذر المبلغ قبل سداده وهو الآن متوفر وقد لا يتوفر غدًا.

عُدت من جديد إلى المرآة وتأكدت من حسن مظهري، قلت في نفسي: لابد أن أكون حسن المظهر جميل المنظر فأنا ذاهب للقاء الله. ابن عمي لم يخطر بباله ما يجول في خاطري وكأنه صدق اللقاء وقصة الغرام، وربما وعلى الأرجح لم يصدق، ولو صدّق لوقف في وجهي ومنعني من ذلك، قبل خروجي صافحته وقال لي: «متى ستعود؟»، أجبته: «ربما في

وقت متأخر من الليل». كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا.

توجهت إلى محطة الحافلات وخطر ببالي الاتصال بالوالدين لوداعهما دون الاشارة لما أنوي القيام به، لكنني تراجعت؛ لأنني اتصلت بهما قبل يومين ولم أكن أتصل بهم يوميًا، فإذا قمت بالاتصال بهما الآن سيثير ذلك استغرابهما وربما يثير الشك في نفسيهما، ووقع الخيار على ابن عمي صاحب المطعم فوالده مصاب بالسرطان، وأحببت أن أواسيه بهذه المكالمة الأخيرة.

تكلمت معه واطمأننت على والده وأنهيت المكالمة، كانت قصيرة، لكن ثمنها كان كبيرًا، فبعد أن نفذت العملية تم اعتقاله والاعتداء عليه والتحقيق معه لمعرفة له علاقة بالعملية، والحمد لله تم الافراج عنه بعد التأكد من أن المكالمة لم تكن أكثر من صلة رحم، وصلت محطة الحافلات وكانت الحافلة المخصصة للعفولة لم تصل بعد.

كان ذلك يعني أن الوصول للعفولة سيتأخر، لذلك قررت الاتصال بسائق تاكسي كان ينقلني إلى حاجز برطعة، طلبت منه أن يأخذني للعفولة بحجة وجود مبلغ من المال هناك لي، وافق على طلبي وقال لي: «سأراك في محطة الحافلات بعد نصف ساعة».

وصلت السيارة في الوقت المحدد وانطلقنا، كانت السكين بحوزتي وفي الطريق بدأت الشكوك تراودني وكنت أخشى الاعتقال؛ لأن حالة الاستنفار الأمني وصلت إلى الحد الأعلى بفعل العمليات التي تحدث كل يوم، كانت الشرطة وحرس الحدود منتشرين في كل مكان يراقبون المارة وأعينهم تدور في كل اتجاه، وخوفًا من التفتيش المفاجئ خطر ببالي أن أضع سكيني داخل الحذاء لإخفائها عن عيون الشرطة في حال حدوث تفتيش للسيارة.

7

كان الإخوة في الغرفة يجلسون حولي وكأنني شيخ ينص عليهم قواعد العلم والايمان، ومضت أكثر من ساعة، ولم يكن يتحدث أحد سواي، ولم يقطع حديثي إلا السجان الذي جاء ليبلغني بأن أجهز أغراضي للسفر، فغدًا أو بعد غد يوجد لي محكمة. لقد انقطع حبل أفكاري وازدادت مخاوفي، وبدأت الشكوك لاسيما أن بعضهم قد تحدث مع السجان باللغة العبرية، جاءت في نفسي الكثير من الأفكار. هل من المعقول أن هؤلاء الأسرى هم أنفسهم (العصافير)، فالمعلومات التي توفرت لدي من خلال الأسرى في مركز تحقيق الجلمة أن العصافير الذين

تستخدمهم المخابرات للحصول على المعلومات من الأسرى يعيشون ذات الظروف التي يعيشها الأسرى، وهم مُدربون بأعلى المستويات لإتقان دور الأسرى حتى تدخل الخدعة على الأسير. لذلك كانت تلك الليلة شديدة على نفسي.

صحيح أنني لا أملك أي جديد، لكن الحقيقة تقول إن المخابرات لا تستثني أي أسير جديد من الدخول إلى العصافير حتى لو أعترف بكل ما وُجّه له، ويكون ذلك للتأكيد بأنه لم يخفِ شيئًا عن المحققين. هذه الشكوك لم تتغير في سلوكي مع الإخوة وسألتهم عن المسير إلى المحكمة كيف يكون، فأجابوني بأنني سأخرج غدًا وخط البوسطة سيبدأ من مجدو، ثم ينتقل إلى جلبوع، ثم تكون المحطة الثالثة معبار سجن سلمون في الجليل الأعلى قرب قرية المغار، ومن هناك تكون المحطة الأخيرة لي، فالخروج من المحكمة يكون من معبار سلمون.

جهزت أغراضي ومستلزماتي وذهبت لأنام، لكن النوم فارقني عدة ساعات، ظني كان يميل بأنني سأعود إلى التحقيق مجددًا، وهذا يعني العُزلة من جديد، وفي هذه الظروف من التفكير العميق قررت في نفسي أن أتأقلم مع أصعب الظروف، فالأسير مطلوب منه ألا يضعف ولا يظهر لأحد نقاط ضعفه؛ لأنه مستهدف دائمًا، والمخابرات تستعمل نقاط ضعف الأسير من أجل الضغط عليه وتجنيده.

استيقظت في الصباح الساعة السادسة وجاء شاويش القسم وفتح لي الباب، خرجت من القسم بعد تفتيشي وأثناء خروجي من القسم

دخلت إلى غرفة الانتظار (الأمتناه)، وبعد ساعة جاءت البوسطة، وبعد قليل من الانتظار بدأت وحدات نحشون بتقييد الأسرى. صعدنا للبوسطة التي كانت مقسمة إلى جزأين، الجزء الخلفي منها عبارة عن صندوق من الحديد مخصص لعامة الأسرى ويستوعب 24 أسيرًا. لفت انتباهي أن بعض الأسرى يرتدون اللون البرتقالي وآخرين اللون البني، والجزء الثاني منها يحوي عددًا من الصناديق الصغيرة مخصصة لفئة محددة من الأسرى. جلست على أحد المقاعد الفارغة وجاء أحد الأسرى، كانت قسمات وجهه تقول إنه ابن 60 سنة، جلس بجانبي وصافحني.

أغلقَ السجان الباب وبدأ بعض الأسرى يصعدون إلى الجهة الخلفية من البوسطة، سألت من يجلس بجانبي عن السبب الكامن وراء هذه الاجراءات، فنحن جميعنا أسرى، أجابني بسؤال على سؤالي وقال لي: «هل أنت جديد في السجن؟»، أجبته: «نعم»، سألني: كم المدة التي أمضيتها؟ قلت: له 20 يومًا، سألته: «وأنت كم لك في السجن؟»، رد عليَّ بكل هدوء وبساطة: 30 عامًا، كان جوابه هذا بمثابة صاعقة نزلت عليّ من السماء، انهلت عليه بالأسئلة وتحركت البوسطة فأصابني الدوران واستشعرت حركة في الأمعاء كدت أتقيأ منها، فالبوسطة مغلقة والشبابيك صغيرة جدًا يكاد الهواء ينفد منها، وبعض الأسرى أشعلوا السجائر رغم أن التدخين ممنوع، ويشمل المنع النحشون وقفت على قدمي رغم القيد، وحاولت الاقتراب من الشباك لاستنشاق الهواء.

دار حديث طويل بيني وبين أحمد الأسير القديم، أجاب على كل أسئلتي، منها ما يَسُر البال ومنها ما يجلب الإحباط، فاللون البرتقالي الذي

يرتديه الأسرى هو لباس الأسرى الجنائيين، وأما اللون البني فهو لباس الأسرى الأمنيين.

أخبرني أحمد أن إدارة السجون حاولت فرض اللون البرتقالي على الأسرى الأمنيين، لكنهم رفضوا ذلك، وفي نهاية الأمر انصاعت إدارة السجون لإرادة الأسرى، واللافت للانتباه أن الزيين المختلفين يزيدان من الاحتياطات الأمنية، فالخطر دائمًا متوقع من الأسرى الأمنيين، فتمييزهم باللباس يوفر الكثير من الجهد على إدارة السجون، فالأسير الأمني يعرف بلباسه ولا يختلط الأمر على السجان عندما تحدث المشاكل.

حديث أحمد كان مفيدًا لي، وكل معلومة قالها كانت جديدة بالنسبة لي، لكن الصدمة كانت بالنسبة لي هي الحديث عن الجنود الذين لم نختلط بهم وخصوصًا أن بعضهم كان يلبس اللباس البني، فكيف يجلس بجانبي سجين جنائي يهودي ويجلس بجانبي ذاك الأسير الفلسطيني المسلم؟! قال أحمد: أولًا ليس شرطًا أن يكون الزي البني خاصًا بالأسير الأمني الفلسطيني وحده وإنما هناك أسرى يهود أجانب ويرتدون الزي البني حيث إن كل يهودي يتم اعتقاله على خلفية قومية مثل المستوطنين الذين يحرقون منازل العرب (جماعة تدفيع الثمن) يعتبر أسيرًا أمنيًا، لكن يتم عزلهم عن الأسرى الفلسطينيين، مثل: قتلة الطفل محمد أبو خضير، وإسحاق رابين رئيس الوزراء الصهيوني، وهؤلاء يتم عزلهم؛ لأننا نشكل خطرًا على حياتهم، وأحيطك علمًا أن الأسرى الجنائيين في الكيان لا يتم الفصل بينهم، فقد يعيش في الغرفة الواحدة أسرى من كل الديانات وهذا لا ينطبق على الأسرى الأمنيين، والأهم هؤلاء الأسرى الذين أدخلوا إلى

الجهة الأخرى منهم الجنائي ومنهم الأمني، فالجنائي على الأغلب معزول وتحت حماية إدارة السجون، ومنهم رؤوس العصابات الإجرامية في الكيان الصهيوني، ويتم عزلهم إما لحمايتهم من الاغتيال من العصابات المنافسة، وإما خوفًا من استغلالهم للأسرى الجنائيين كافة، منهم من يفهم بأنه جاسوس لاستخبارات السجن، فالمخابرات تجند الأسرى الجنائيين لكثير من الأسباب أهمها معرفة ما يجري داخل السجن، وفي أحيان كثيرة تعمل على تجنيد أسرى من الضفة لصالح الشاباك، ومنهم أصحاب مخالفات منافية للأخلاق العامة مثل المغتصبين للفتيات والفتيان، وهذه الظاهرة مرفوضة.

إضافة إلى أن بعض الأسرى يتم عزلهم بسبب صغر السن، وهؤلاء لهم سجون وأقسام خاصة لا يختلطون بعموم الأسرى إلا بعد سن 18 سنة.

أما بالنسبة للأسرى الأمنيين المعزولين فهؤلاء أصناف عدة، منهم وأخطرهم من تم عزله من قبل الشاباك، والسبب هو تجديد نشاطهم العسكري من داخل السجون، ومحاولة تشكيلهم خلايا عسكرية من خلال المراسلات والاتصال الهاتفي، فهؤلاء يتم عزلهم ويمنعون من زيارة الأهل لمدة طويلة ولا يخرجون من العزل إلا بعد خطوات كبيرة في مقدمتها الإضرابات العامة. وهنا قاطعت أحمد وسألته متعجبًا: هل يستطيع الأسير القيام بعمل عسكري من داخل السجن؟!. قال أحمد: إن هذه المسألة يرفضها عموم الأسرى، لكن بعضهم يتصرف بشكل منفرد ويذهب في هذا الاتجاه، والتجربة تقول إن الضرر في هذا الأمر أكبر بكثير من النفع،

وحدثت عشرات التجارب دون نتيجة، فأنت تعيش في السجن ولا تعلم كيف تجري الأمور في الخارج، والعمل العسكري له متطلبات كثيرة، فكيف تستطيع النجاح وأنت في السجن؟! وكثير منهم فشل في الخارج ويريد تكرار التجربة من الداخل، وهذا عَبَث وقد دفعنا ثمنًا كبيرًا لهذا السلوك؛ لذلك لا يشجع الأسرى لدى كل الفصائل هذا التوجه، فنحن الأسرى ليس مطلوبًا منا هكذا أعمال، ومطلوب منا أن نرفع مستوى وعينا ونستغل أوقاتنا بالدراسة والعلم، وكما قال المناضل الكبير نلسون مانديلا والذي أمضى 27 عامًا في السجن: «إن السجن والسجان متفقان على كسر إرادة الأسير وإفراغه من محتواه النضالي والسياسي، ولا سبيل لتحطيم هذا المخطط إلا باستغلال الوقت في الدراسة والعلم والقراءة والمحافظة على الحس الوطني والديني والأخلاقي من خلال التمسك بالمبادئ».

أما الصنف الثاني من الأسرى الأمنيين فيتم عزلهم لعدة أسباب، فمنهم من يتم عزله بسبب اعتدائه على السجان، ومنهم من يحاول الهرب، ويبقى التذكير بمسألة مهمة وهي أن عزل إدارة السجون أسهل بكثير من عزل الشاباك، فإدارة السجون تعزل لمدة محدودة لا تتجاوز السنتين، والمعزول مسموح له زيارة الأهل، ويحصل على نفس الامتيازات بعكس عزل المخابرات فالزيارة ممنوعة إلا كل عدة سنوات ويتم متابعته ومراقبته أكثر، أما الفئة الأخرى من المعزولين فهم الذين عزلوا أنفسهم بناء على طلبهم وهم قلة، وتعود الأسباب في أغلبها إلى ظروف اجتماعية حيث لا ينسجم هؤلاء مع الأسرى على الأغلب ويرفضون الاختلاط بهم، ومنهم من طال أمده في السجن، فالأسرى وخصوصًا منهم الجدد

يمتازون كثيرًا بالعفوية والفوضى ولا يريد بعض الأسرى العيش في ظل هذا الجو، فتراهم يبحثون عن الهدوء ولو كان في العزل، وهذه مسألة وظاهرة غير طبيعية، لكنها قليلة جدًا والحالات بتاريخ السجون معدودة، وهؤلاء الإخوة يتعرضون لضغوط كثيرة من قبل إدارة السجون في العزل، فهي دائمًا بحاجة ماسة لمكان فارغ في العزل، فتراهم في كثير من الأحيان يتعرضون لضغوط من إدارة السجون للخروج من العزل، وأهم الوسائل التي تستخدمها محاولة إسكانهم مع الأسرى الأمنيين المحميين وهؤلاء سأشرح لك عنهم بعد قليل، فهم الأسوأ بين الأسرى، وهذا الرجل الذي تراه أمامك من خلف الباب هو من الأسرى الشاذين جنسيًا، تفاجأت من هذه الكلمة. وأحمد قرأ ملامح وجهي وقال لي: نحن بشر وهؤلاء قلة ولا يمثلون شيئًا.

وأضاف أحمد: «التاريخ الفلسطيني يقول وحسب احصائية وزارة الأسرى أن ما يقارب من 700 ألف أسير فلسطيني قد تم اعتقالهم خلال 50 عامًا، ألا يعقل أن يكون بين هؤلاء الأسرى عدد لا بأس به من الجواسيس؟». قلت: شيء طبيعي، ثم سأل: ألا يعقل أن يوجد بينهم لصوص ومن كل فئات المجتمع؟!. قلت: نعم، فقال أحمد: إذن فمن الطبيعي أن يخرج بين هؤلاء عدد من الشاذين جنسيًا، فنحن مجتمع كبير والحركة الأسيرة شملت مئات الآلاف ومن كل فئات المجتمع، ونحن بشر ولسنا ملائكة، والـ 50 عامًا التي مضت لم تسجل سوى عدة حالات لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، وهذا الأمر عظيم فلو قدمت هذه الاحصائية لمختصين في علم الاجتماع أو علم النفس الإنساني، وقلت له: من بين

700 ألف لم يخرج سوى 8 حالات شاذة جنسيًا، سيقول لك مستحيل هذا مجتمع ملائكة وليس بشرًا».

لقد أثار فضولي وزاد من إصراري لمعرفة المزيد، ثم قال أحمد: أول ظهور لهؤلاء في السجون كان في منتصف السبعينات من القرن العشرين، فقد خرجت مجموعة صغيرة من أحد التنظيمات تطالب بالليبرالية المطلقة والحرية للفرد في حقه بممارسة الشذوذ الجنسي، وقد واجهوا المعارضة الكبيرة بين الأسرى، وانتهت المحاولة في مهدها، وقد تأثر هؤلاء بالفكر والثقافة الغربية ومراحل الانهيار التي مرت بها المنطقة.

لم يمثلوا ظاهرة أو توجهًا، ربما لم يكن أمرُهم جدِّيًا، وربما تم المبالغة بالأمر لكي يسهل القضاء عليهم، وربما تعود أسباب المبالغة إلى أن التنظيمات كانت ترفض مبدأ الحرية الذي يشكل أساس المعارضة، فالتنظيمات أشبه بالديكتاتورية في تلك المرحلة لذلك كانت ترفض الرأي المختلف.

هذه الحالات الشاذة خرجت من رحم الحركة الأسيرة خلال الـ 20 عامًا الأخيرة، وبالتحديد بعد عملية السلام أوسلو التي أدت إلى انهيار التنظيمات داخل السجون، وهذه قضية أخرى شرحها يطول.

لا بد من التذكير أن بعض الحالات الشاذة لم تكن وليدة واقع الأسر، أي أن الظروف الصعبة التي مرت بها الحركة الأسيرة لم تَلِدْ هذه الفئة، وإنما كانت هذه الحالات تحمل هذه الصفة قبل دخولها للسجن، وهذا الذي أمامنا أعرفه جيدًا وأعرف قصته كاملة، وحكايته بدأت مع خاله الذي على ما يبدو كان مصابًا بهذا الداء الخطير.

فقد اعترف أن خاله وفي صغره كان يتحرش به جنسيًا واعتدى عليه بعد مدة، وهكذا شق طريقه حتى تحول إلى مريض لم يجد من يداويه أو يسعى لشفائه، وعندما دخل السجن بحث عن بعض النفوس المريضة التي هدفها الجنس نتيجة قلة الصبر وقلة الوعي وغياب الحس الديني والوطني والأخلاقي، فبعد أن تم اكتشاف حالته المرضية تم طرده من السجن مع أنني أرفض ذلك فيجب أن يبقى أمثاله بين الأسرى لأسباب كثيرة. لقد أثار استغرابي أحمد بهذا الرأي، وقلت له: كيف تقبل أن يعيش هذا الشاذ بيننا؟! قال لي: المسألة ليس كما يخطر ببالك، هذا المريض يحب أن يبقى تحت عيون الأسرى، فخطره بعد أن تم التعرف عليه ونحن عندما ندفع به إلى العزل نحوله إلى وحش يتربص بفرائس جديدة، وعندما يكون بين أيدينا نأمن غدره، ففي العزل قد يأتي أحد من الأسرى الجدد الذي لا يعلم عن هذه الظاهرة شيئًا ويدخل الزنزانة، وعند ذلك لن يتوانى المريض عن افتراسه، وقد حدث أن اعتدى على أحد الأسرى الجدد داخل الزنزانة بعد أن أدخلته إدارة السجون عمدًا عنده.

فمن الذي خسر في هذه الحالة؟! نحن من خسرنا وهو من ربح، وقد تبين لنا أن المخابرات وإدارة السجون تستخدم أمثاله كمصيدة للأسرى وتحاول إدخال بعض المعزولين إلى غرفهم من أجل الضغط عليهم وتشويه سمعتهم وربما لتجنيدهم. نحن لا نتهم الشواذ بالخيانة، ولكنهم تربة خصبة لذلك، وهذا الرأي ينطبق على فئة من المعزولين قريبة منهم، وهم الأسرى الذين تم عزلهم بسبب اتهامهم بالخيانة والتجسس، وكثير من هؤلاء اتهموا ظلمًا وزورًا وكانوا ضحايا للتخلف وغياب الوعي

الأمني، فهؤلاء أرفض إخراجهم للعزل؛ لأن المظلوم منهم قد يُستغل، والمجرم قد يتحول إلى وحش للانتقام وهذا ما حدث، فغرف العصافير التي تسمع عنها والتي تسببت بمصائب كبيرة أسسها أحد الجواسيس الفارين من داخل السجون وهو عبد الحميد الرجوب؛ انتقامًا لما أصابه، ولو أن هذا الرجل بقي بيننا لما حدث ما حدث، اليوم غرف العصافير تشكل أهم الأدوات وأعظمها والتي تستخدمها المخابرات للاحتيال على الأسرى حتى يتم سحب الاعتراف منهم بإرادتهم، هذا ما فعله الرجوب بفعل أيدينا.

هل من الأفضل أن يبقى هذا بين أيدينا وتحت عيوننا أم نقوم بطردهم للعزل لكي يتحولوا إلى وحوش كاسرة؟ سألت أحمد: كيف قام الرجوب بتأسيس غرف العصافير؟ قال أحمد: الرجوب كان أحد ضحايا الاحتلال وأحد ضحايانا؛ لأننا لم نحسن التعامل مع هذه الحالات وهذه الظاهرة، عندما ندفع الجاسوس للهرب نكون قد جنينا على أنفسنا مرتين، في الأولى لم نقدم رؤية متكاملة لمحاربة هذه الظاهرة ضمن استراتيجية وطنية، وفي الثانية عندما حولناه لوحش ينهش بأنيابه جسدنا العاري، فعندما فرّ للعدو مارس الانتقام والاغتيال وأصبح جنديًا فعالًا من أذرع الأمن وقواته الميدانية، والفئة هذه كانت مصيدة لتجنيد العملاء، والرجوب من هؤلاء؛ فقد قدم هذه الفكرة لجهاز المخابرات فأعجب بها الجهاز؛ لأنها ستوفر عليه جهدًا كبيرًا وإمكانياتٍ هائلة، فكانت الفكرة كما نرى فتح أقسام للجواسيس تحاكي أقسام الأسرى وتكون مهمتها سحب الاعتراف من الأسير بخداعه وتضليله، وقد ساعد على نجاح هذه الفكرة

حالة الجهل وغياب التعبئة التنظيمية والتثقيف الأمني لعناصر التنظيمات في الخارج.

للأسف الشديد مضى علي هذه الظاهرة عشرات السنين وما زال الأسرى يقعون ضحايا لها، وما زالت التنظيمات والمؤسسات الفلسطينية الرسمية وغير الرسمية تفتقر لآلية حقيقية لمعالجة هذه الظاهرة الخطيرة، ويعد هذا المرض من الأمراض الاجتماعية التي تفتك بمجتمعاتنا العربية وخصوصًا الفلسطيني منها، وهي حب الظهور وطلب الشهرة والزعامة والفخر والمباهاة، أغلب الأسرى الذين يقعون ضحايا لغرف العصافير مجرد سماع بعض كلمات الاطراء والمديح يندفع بلا توقف عن افراغ ما بجعبته من أسرار، أنت بطل، أنت قائد، أنت مغوار، ماذا فعلت بالخارج؟ نريد منك أن تقول لنا ما هي الأشياء التي لم تعترف عليها حتى نضع الإخوة بالخارج بالصورة الكاملة.

الجواسيس والعصافير يبذلون جهدًا كبيرًا لسحب الاعتراف وبالطرق السليمة والبسيطة وفي كثير من الأحيان يكون داخل الغرف ضابط مخابرات، واليوم تطوروا كثيرًا ولا يستخدمون الكتابة وإنما يكتفي بالكلام فجهاز التسجيل متواجد في كل الغرف، هذه الفكرة التي طرحها الرجوب وتنسب إليه وربما تكون فكرة لغيره.

الجاسوس عندما يتم طرده للعزل يبدأ بالبحث عن كل الطرق للانتقام لنفسه، ويتم استغلاله بشكل أكبر من المخابرات، ومن هؤلاء من يعمل في غرف العصافير، ومنهم من يسعى لتجنيد بعض الأسرى المعتقلين

في التحقيق وفي العزل، لذلك بقاؤه تحت عيون الأسرى أفضل من طرده.

سألت أحمد: هل كان الشاذين مطرودون من أقسام الأسرى؟ أجاب: لا، هناك البعض منهم ما زالوا في السجون وهي حالات معروفة، ومنها من تم التستر عليه من قبل تنظيمه، وهذه الحالات رغم قلتها لا تقتصر على تنظيم دون سواه مع تفاوت في العدد، وهؤلاء تتفاوت حالاتهم المرضية، هناك البعض من لديه ميول جنسية شاذة، لكنه لا يمارس الشذوذ بحكم العرف الاعتقالي، وهناك من مارس الشذوذ خصوصًا إن تهيأت له الظروف، والقصة الأخيرة في معبار الرملة شاهد على ذلك، فقد حاول أحد الشاذين الاعتداء جنسيًا على قاصر، لكنه لم يتمكن منه، فهذا القاصر الذي وقف بوجه جيش مدجج بأقوى الأسلحة لم يغلبه معتوه شاذ.

سألت: أنت تقول أنه يوجد بعض الأسرى ممن يعانون من هذا المرض ويتم التستر عليهم، ألا يشكل ذلك غطاء لهم؟! أجاب: لا، ليس بهذا الشكل، الإنسان الذي يعاني من هذا المرض لا يستطيع أن يخفيه، هناك بعض الأمراض الصحية لا يمكن إخفاؤها، وكذلك هذا المرض لا يمكن إخفاؤه، ومن السهل التعرف عليه وتجنب خطره، سلوكه مع الأفراد واهتماماته ونوعية الأشخاص التي يستهدفها في علاقاته الاجتماعية كلها عوامل تؤدي للتعرف عليه. وهذه الحالات مأمون مكرها؛ لأنها دائمًا موجودة وكثيرًا ما يتم علاجها من قبل الأسرى بالإرشاد والتوجيه والتنبيه والنقل في أحيان كثيرة، قلت لأحمد: أريد منك أن تشرح لي عن العزل الانفرادي فقد أخذ موضوع الشذوذ والشاذين وقتًا كثيرًا.

8

أجابني أحمد عن العزل الانفرادي قائلًا: العزل الانفرادي ليس سجنًا كاملًا، أي ليس مستقلًا عن السجون، وإنما يوجد في كل سجن قسم خاص بالعزل له اجراءاته الخاصة وظروفه المختلفة، والهدف منه عزل بعض الأسرى عن باقي الأسرى للأسباب التي ذكرنها آنفًا. العزل ليس سهلًا ولا مطلبًا، والإنسان الصحيح لا يطلب العزل، فأنت معزول عن البشر وتمكث أشهرًا وربما سنين طويلة وعلى الأغلب وحدك داخل زنزانة صغيرة لا تستطيع التحرك إلا قليلاً، وعندما يتم عزلك يكون الإجراء الأول وضع القيود بيديك ورجليك في كل لحظة تخرج فيها من

داخل الزنزانة، الغرفة صغيرة جدًا فيها متطلبات الأسير من تلفاز وراديو ومسجل ولك الحق في شراء المشتريات المسموح بها للأسرى من خضار ولحوم وحلويات ودفاتر وأقلام ومشروبات، في كل زنزانة يوجد سريران، لكن على الأغلب يعيش في الزنزانة أسير فقط، وتحاول إدارة السجون غالباً إدخال أسير آخر؛ لأنها تعاني من ضغط شديد في غرف العزل.

تخرج في اليوم ساعة واحدة إلى الفورة، والساحة صغيرة جدًا بحجم زنزانتين، تستطيع غسل ملابسك في الأسبوع مرة واحدة.

يوجد في كل عزل مكتبة تخضع لسياسة إدارة القسم والكتب من اختيار الصليب، يأتي الصليب لزيارتك كل شهرين ومحامي وزارة الأسرى كل أسبوعين خصوصًا إن كان متواجدًا في قسمك أسير أمني، تحصل على مخصص من وزارة الأسرى للكانتينا 400 شيكل كبقية الأسرى و700 شيكل على حسابك في الخارج، تقوم إدارة السجن بنقلك من السجن كل 3 شهور وأحيانًا كل 6 شهور، ويتم تمديدك كل 3 شهور من قبل نائب مدير السجن أو ضابط المنطقة، وعندما تتجاوز السنة يتم تمديدك عبر المحكمة المركزية في المنطقة كل 6 شهور.

عندما يتم نقلك لسجن آخر توضع في غرفة منعزلة عن الأسرى، كما تشاهد هذا الرجل في قسم العزل قد يتواجد بجانبك معزولون على خلفيات مختلفة منهم الجنائي ومنهم الشاذون ومنهم المطرود بسبب مشاكله، ومنهم العربي ومنهم اليهودي.

يمكن أن تتعرض لضغط من قبل إدارة السجن لكي تُدْخِل عندك

أسيرًا مريضًا أو جاسوسًا وعليك أن تقاوم والقانون معك، وهم لا يملكون الحق في إجبارك لكنهم يحاولون دائمًا، فإن لمسوا تجاوبًا منك لا يتوانون عن إدخالهم، وللأسف إن بعض الأسرى استسلم لمثل هذه المحاولات، منهم من تعرض للاغتصاب ومنهم أُسيء إليه، فيجب أن يكون الأسير واعيًا جدًا لسلوكه وتصرفاته فهو مستهدف دائمًا فعليه أن يرفض الدخول والسكن مع أي أسير قبل أن يتأكد من هويته من خلال الجهات الرسمية أو الأسرى أنفسهم. في العزل مطلوب من الأسير حتى يحافظ على وضعه الصحي والنفسي أن يمارس الرياضة ولا يقاطع ساعة الفورة، وكذلك عليه أن يملأ وقته بالقراءة والمطالعة ومتابعة الأخبار.

أقسام العزل موزعة على كل السجون في جلبوع ومجدو والرملة وعسقلان ونفحة ورامون والسبع، وهناك سجون لا يتم عزل الأسرى الجنائيين فيها مثل مجدو وحجم الزنازين والساحات متفاوت والظروف الصحية كذلك، وأشدها قسوةً عسقلان والرملة وأقلها رامون وجلبوع.

مضى أحمد في حديثه يشرح لي مأساته وأنا أجوب النظر في فلسطين الحبيبة وقد أذهلني جمالها، قالوا إن القارة الأوروبية الخضراء هي أجمل القارات من جهة الطبيعة وأنا لم أعرف أوروبا إلا من خلال الإعلام. إن شمال فلسطين بهذه الجبال والأودية المليئة بالشجر البري الأخضر والذي تتخيله كحبات اللؤلؤ الأبيض، القرى والمدن العربية أجمل بكثير مما رأيت على التلفاز، قال أحمد: أينما تر الصبر ــ التين الشوكي ــ في المناطق البرية فاعلم أنك تشاهد في الحقيقة قرية أو مدينة عربية تم تهجيرها وطرد أهلها عام 1948م.

لاحظت أن الغبار يملأ المكان يحكي قصص المنكوبين المطرودين، وهنا بقايا من الزيتون وحجر الدار يقرئ السلام لمن يعرف ومن لا يعرف، الجبال والتلال والخروب والسنديان والبلوط تنبئك عن خبر المشردين المنكوبين، هناك شاهد قبر وبقايا مسجد وحائط دار بجانبه طابون وكأنه مشغول.

مررنا على طمرة الزعبية، ثم الناعمة وكفر مصر، لم أعرفهن من قبل، ولكن اللافتات على الشوارع ترشدك إلى الاتجاه، وها هو جبل الطور يحلي جبينه بقرية دبوريا وعرب الشبلي وكأنها إكليل من الألماس على جبين عروس ليلة زفافها، وعلى رأس الطور تتربع كنيسة لإخواننا المسيحيين، ظننت في البداية أنها مستوطنة لكن أحمد صحح خطئي.

الجليل جميل جدًا وأجمل ما فيه القرى والمدن العربية التي تزينه، وأخبرني أحمد أن الجليل يخلو من الكثافة السكانية اليهودية رغم أنهم هجَّروا سكانه، وعدد اليهود الذين يسكنون الجليل قلة والعرب يشكلون الأغلبية استمرت البوسطة تشق الجبال والوديان صعودًا إلى الجليل الأعلى.

انعطفت البوسطة يمينًا ورأيت بقعة من الماء تغطي مساحة كبيرة من الأرض بين الجبال فأخبرني أحمد أنها من الممكن أن تكون بحيرة طبريا؛ لأننا قريبون جدًا منها.

صعدنا قليلاً، ثم انعطفت البوسطة شمالاً. قرأتُ لافتة تشير إلى قرية المغار وهي من القرى المختلطة في فلسطين 1948م مثل أبو سنان ومجد الكروم ودير الأسد يسكنها دروز ومسيحيون ومسلمون، وتوقفت

البوسطة على باب السجن ونزل الحراس وحملوا أسلحتهم قبل الدخول إلى غرفة التفتيش، وانطلقنا إلى داخل السجن بعد القيام بكافة الإجراءات المتبعة.

أحمد المحكوم مؤبدًا يتوجه إلى المحكمة اليوم من أجل الاحتجاج على منع زيارة والدته العجوز والتي تبلغ من العمر 82 عامًا. قال أحمد: أمي ممنوعة من الزيارة بذريعة الأمن وتشكيل خطر على أمن دولة الكيان الصهيوني، والممنوع أمنيًا يحصل على تصريح مرة واحدة في السنة وأمي واحدة من هؤلاء، لكنها عندما تحصل على تصريح يتم إرجاعها عن الحاجز بعد أن يتم تمزيق التصريح والحُجَّة أنها ليست أمي، المنع الأمني قد أتفهمه ولكن ما لا أتفهمه سبب تمزيق تصريحها السنوي والأمني، من أجل ذلك أنا اليوم هنا، هذه ليست نكتة هذه حقيقة، هناك كثير من الأهالي يتم إعادتهم من الحواجز بسبب هذا الادعاء، ومن المفارقات العجيبة أن المناضل الكبير نيلسون مانديلا كان يعاني في سجنه من ذات الأسباب، ومن يقرأ مذكراته يدرك هذه الحقيقة، وقد قال وهو يشتكي ظلم السجان في جنوب أفريقيا: «إنهم يمنعون أمي من زيارتي؛ لأنهم يزعمون أنها ليست أمي، وكذلك زوجتي، خلال سنوات وأنا أطرق كل الأبواب عبر كل المؤسسات من أجل زيارة أمي وعندما يحين موعد الزيارة يعيدونها من البوابة بعد سفر طويل».

ويضيف مانديلا: «سنين طويلة وأنا أتمنى ملامسة يد أمي وزوجتي وحفيدتي الصغيرة، ولا أستطيع؛ لأن الحاجز الزجاجي على الزيارة يحرمنا ذلك». ويضيف قائلاً: «أثناء المحاكمة كنا نجلس في فناء القاعة بمكان

مريح به الأشجار والورود وكان ذلك يشكل لنا بعض الراحة النفسية، ولكن فجأة خرجنا إلى المحكمة وإذا بهم يضعوننا داخل أقفاص من الحديد تشبه سجن الكلاب». نيلسون مانديلا احتج على نظام التفرقة العنصرية؛ لأن مسمى السجناء السياسيين أسرى أمنيون وليس سياسيين، وهذا له مدلولات خطيرة وسيئة، من يقرأ مذكرات نيلسون مانديلا يجد التشابه الكبير بين الكيان الصهيوني ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، فيا تُرى مَن عَلَّمَ مَن؟! ولابد من التذكير أن النظامين كانت تربطهما علاقة متينة جدًا، وكانت تدعمهما أمريكا أم الحريات في العالم وعراب الديمقراطية. عندما احتج الأسرى السياسيون في جنوب أفريقيا على أقفاص الحديد المخصصة للكلاب وليس للبشر ويتم وضعهم فيها قامت المحكمة آنذاك بإغلاق تلك الأقفاص، ولكن العدو الصهيوني في القرن الـ 21 يفتح تلك الأقفاص في معبار الرملة ومن يشاهد المنظر يُصَبْ بالصدمة، قالوا إن تسيبي ليفني وهي وزيرة العدل سابقًا أمرت بإغلاقها وتم ذلك قبل عدة سنوات، لكن لا ندري ما السبب الحقيقي وراء ذلك، لكن الأهم من ذلك هو أنه لم تمضِ أشهر حتى أُعيد فتحها ولا ندري ما السبب أيضًا. إن أقفاص الحيوانات في معبار الرملة تعبر عن اللاإنسانية واللاأخلاقية التي وصلوا إليها.

9

دخلنا إلى غرفة المعبار ووجدنا بعض الأسرى الذين سبقونا في الدخول، وآخر يريد المغادرة والعودة إلى سجنه. في المعبار لا تتوفر أدنى الشروط الإنسانية للحياة، لا حمام ولا دورة مياه تليق بالإنسان، والأسرّة يعلوها الصدأ وتتراكم عليها الأوساخ وكذلك الفرشات، جلسنا وبدأنا نتعرف على بعض، ولأول مرة ألتقي بإخوة من الداخل يؤيدون ما يسمى داعش، منهم من عاد من سوريا، ومنهم من تم إيقافه على الحدود، ومنهم من تم اعتقاله قبل خروجه.

شباب بعمر الوردة خدعتهم الماكنة الإعلامية لداعش وأقنعتهم أن القتال في سوريا والعراق وليبيا أعظم عند الله وأفضل من فلسطين.

كيف يعقل ذلك؟! تركتُ أحمد يختلي بأحد الأسرى القدامى من أصدقائه والذي لم يره من فترة، واندمجتُ في الحديث مع شباب ألهبتهم الخلافة الراشدة التي على منهاج البغدادي، تبادلنا الحديث مطولًا، وفجأة سألني أحدهم: هل أنت حماس أم فتح؟ قلت له: إنني جهاد إسلامي.

كانت كلماتي وكأنها قذيفة أصابت بيتًا فجعلته قاعًا صفصفًا، جهاد إسلامي! شيعي! أنت شيعي! الشيعة كفار، الشيعة ملعونون، الشيعة أشد كفرًا من اليهود والنصارى، اتق الله هؤلاء يسبون الصحابة ويتهمون أُمنا عائشة بالزنا. مضت دقائق وهم يتبادلون الأدوار طعنًا بالشيعة والجهاد الإسلامي، وتدخَّل أحمد قائلاً: حتى لو كان شيعيًا، ألم يعمل من أجل فلسطين؟ ألا يصلي الآن خلفكم؟! الجهاد ليسوا شيعة وإنها تهمة باطلة، أنا أنتمي لفتح وأقول لك ذلك، لا تسمع من هؤلاء فهم يفتقرون للحد الأدنى من الوعي، ألا ترى أنهم لا يتقنون الوضوء ولا يحسنون الصلاة، فكيف أثق بثقافة هؤلاء؟

شدني أحمد بيده وقال لي: تعال لتحكي لنا الرواية بالتفصيل، فأنت كنت التالي بعد مهند الحلبي الذي أضاء نوره الآفاق وأحيا ميّت النفس وأيقظ فينا من جديد روح التحدي والإباء.

أحمد للتو طلب مني نص الرواية التي سيطلبها مني كل من يلتقي بي، هذا عُرف الأسرى خصوصًا إن كانت حكاية الأسير أخذت موجة من

الإعلام العالمي، ربما لم تكن العملية بهذا المستوى، لكن الصورة تعطي حجمًا كبيرًا واهتمامًا عظيمًا. بدأت الحديث وانشد إليّ كل من كان في الغرفة بمن فيهم الإخوة الذين اتهموني واتهموا حركتي بالتشيع ظلمًا وزورًا. كان عليّ أن أبدأ من جديد، ومن أجل جمال الحكاية وسيرًا على الأسلوب القرآني في السرد كانت البداية من أم الفحم التي أحببتها، فعندما غادرتها متوجهًا للعفولة التفتّ للخلف ونحن ننعطف يمينًا، فنظرت إليها كمن ينظر إلى الدنيا وهو في رمقه الأخير.

كانت لحظة الوداع عزيزة عليّ، وكادت عيني تبللن وجهي بالدموع لولا أنني تمالكت أعصابي مع السائق خوفًا من أن يتسرب الشك إلى قلبه فيمتنع بذلك عن نقلي للعفولة.

كانت المحطة الأولى لي في الطريق مفرق أم الفحم وادي عارة، فمن هنا بدأ ركب السائرين إلى الجنة، الاستشهادي العظيم عرفات غوادره الذي فجَّر نفسه مطلع انتفاضة الأقصى.

عندما تمر قرب خطا الأولين ينتابك إحساس غريب وخصوصًا إن كنت في طريقهم وعلى ذات السبيل كانت الطريق إلى العفولة تعج بالذكريات الأليمة وقصص المنكوبين، وادي عارة الممتد من باقة الغربية إلى مصمص يعتبر شوكة في حلق الكيان الصهيوني، فقد تم مقايضته بمحافظة جنين مع النظام الأردني في عام 1948م، وقد اعتبر قادة العدو هذه الاتفاقية أهم الأخطاء الاستراتيجية في تاريخ قيام الدولة؛ لذلك تجدهم اليوم ومن خلال أكثر الصهاينة تشددًا يطرحون فكرة تسليم وادي عارة للسلطة

الفلسطينية مقابل تخلي الأخيرة عن أجزاء كبيرة من الضفة تبلغ 56 ٪ من إجمالي مساحة الضفة الغربية وهي بذلك توسع من حدودها داخل مناطق 1967م، وتؤمن المستوطنات، والأهم من ذلك تُخرج جزءًا كبيرًا من السكان العرب من داخل الدولة؛ لأن ازدياد العرب بشكل متسارع يشكل خطرًا حقيقيًا على مستقبل دولتهم، وهذا ما يسميه بعضهم القنبلة السكانية سارت معنا السيارة ونحن نسير بمحاذاة قرية مشيرفة.

تذكرت الأسرى العظام الذين نفذوا عملية معسكر جلعاد، فتلك العملية نقشت بالذاكرة الفلسطينية؛ لأنها من أشهر عمليات انتفاضة 1987م، مثلها مثل عملية عبد الهادي غنيم ابن غزة المقاومة والذي قام بإخراج الحافلة عن مسارها مما أدى إلى وقوعها بأحد وديانها الشاهقة فقتل 16 مستوطنًا صهيونيًا.

مضت السيارة بنا وإذ بقرية مصمص من قرى أم الفحم يفوح منها عبق الشهادة، هنا في هذا المكان وكأي مكان في هذه الأرض المباركة رائحة الشهداء تنتشر في الأرجاء، رأفت أبو دياك تحدث عنه المفكر الإسلامي الكبير محمد سليم في كتابه «شخصيات إسلامية» كأنه رجل من رجال الأمة العظام، رأفت دخل وادي عارة قادمًا من مدينة الاستشهاديين (جنين)، هكذا كان يسميها العدو الصهيوني في مطلع انتفاضة الأقصى؛ لأنها كانت معقل الاستشهاديين، والمدينة الأكثر مقاومة، والتي صنعت بمخيمها ملحمة تاريخية ستبقى عنوان الثائرين ومصدر إلهامهم على مدار التاريخ والأجيال. نحن نبكي جنين اليوم؛ لأنها أسقطت الراية وتنحسر عن هذا الدور المتواضع الذي يغطيه أبطال قباطية الصغار، لقد

تعود العالم على ريادة جنين في كل ملحمة من ملاحم الشعب الفلسطيني مع هذا العدو، لكن اليوم جنين فاجأت كل الأحرار بغيابها الغريب عن قيادة الأحداث إن هذا الدور الذي أريد لجنين أن تمثله كحمامة سلام وهذا الطريق الذي يتناقض مع نهج المقاومة لن يطول، وجنين ستلتقط الراية من جديد يدفعها ذخر عظيم من تراث الشهداء العظام أمثال زياد العامر وإياد صوالحة وأبو علي مصطفى.

هنا قبالة قرية مصمص فجَّر ابن جنين رأفت أبو دياك جسده الطاهر وحوَّله إلى قنبلة تمزق جنود العدو وقادته، وكلما فكرت أن أعدل عن رأيي جاءت الذكريات التي تملأ المكان لتطرد هاجس الخوف وتقتل في صدري الجُبن، لم يتحدث السائق معي في الطريق إلا قليلًا، فقد رأى في عيني حب النظر إلى الأرض وجمال الطبيعة، قال لي: إن هذه الأحراش تسمى أحراش يعبُد وهي ممتدة من قرية يعبُد إلى قرية زُلفة وسجن مجدو ولكن الناس قليلًا ما تعرف هذه المعلومة وكل أهل بلد يسمون الأحراش نسبة إلى بلادهم، وهذا يعني بالنسبة لي أن الخيط العظيم خيط المقاومة لم ينقطع من القسام إلى رأفت أبو دياك وقبله الاستشهادي الكبير الذي هزّ الكيان الصهيوني وأطرب الأسرى في سجن مجدو بصوت انفجار عمليته البطولية التي قتل فيها 17 جنديًا وأصاب العشرات.

نحن نقترب من المكان الذي رواه حمزة سمودي بدمه، وأعلن فيه عن فلسطينية وإسلامية المكان. صعدنا قليلًا بعد أن غادرنا مصمص المحطة الأخيرة التي وصل إليها رأفت أبو دياك وكانت له بوابة السماء، ثم بدأنا نهبط قليلاً نشق بطريقنا سهل زُلفة والتي تبعد عنا مرأى العين.

اقتربنا أكثر من الأحراش التي تطوق سجن مجدو، وإذا بنا نمر حيث مرَّ الكبار، من هنا عرج إلى السماء حمزة سمودي ماضيًا إلى ربه بدمه الطاهر الزكي معلنًا اعتذاره نيابة عن الأمة التي تركت فلسطين تنهشها الوحوش الضالة.

مرة أخرى يقاطعني السائق بسؤاله عن وجهتي وعن الغاية من ذهابي للعفولة في هذا الوقت بالذات، فأجبت مرة أخرى أن رجلًا من الناصرة مدين لي بمبلغ من المال، وقد اتفقنا على الالتقاء في العفولة ليسد لي ديني، لم يثر جوابي في نفس السائق أي شكوك، لكن التخوف يظل يتعاظم في قلبي من أن تتبدد هذه الثقة.

اقتربنا أكثر من سجن مجدو ووقفنا على مفرق الطرق، مفرق مجدو، فهنا لافتة تشير إلى جنين نحو اليمين، وأخرى نحو الشمال إلى حيفا وعكا، وأمامنا أخرى تشير إلى العفولة والناصرة، من هنا توزع الاستشهاديون منضمين إلى كوكبة الخالدين يرسمون بأجسادهم خارطة الوطن المسلوب نحن نقطع الطريق التي سار القسام عليها متوجهًا إلى جنين؛ ليعلن فيها الثورة ونعبر إلى رمز التراب الفلسطيني مرج بن عامر حلقة الوصل بين حيفا وجنين، عبق التاريخ يملأ السهل الفلسطيني، لم يبق من مرج بن عامر بيد الفلسطينيين سوى أجزاء قليلة تحيط مدينة جنين وبعض القرى. غاب الفلاح الفلسطيني عن المكان كصاحب أرض منذ عام 1948م، وها هم اليوم لا يعودون إلا كعمالة مأجورة ورخيصة بيد الجلاد المغتصب.

اقتربنا من العفولة وسألني السائق: أين تريد أن تنزل في العفولة؟ ما

هو المكان الذي تنوي لقاء صديقك به؟ لقد أصابتني الحيرة ولم أدرِ ماذا أجيب، فأنا لم أدخل مدينة العفولة من قبل ولا أعرف أي عنوان كي أدعي الصلة به، قلت له بأنني لم أدخل المدينة من قبل وأريد منك أن تنزلني بمكان يتواجد به العرب عادة، دخلنا المدينة وسار بي قليلًا، ثم قال لي: لا أستطيع التقدم أكثر من ذلك. نزلت من السيارة وشكرته، كنت قريبًا من أحد الحدائق العامة، رأيت بعض الأماكن للجلوس فجلست على أحدها وقلت في نفسي إن هذه المحطة ستكون النقطة التي أختار بها هدفي.

لم تمضِ لحظات حتى جاءت مجموعة من كبار السن فجلسوا بجانبي كانوا يتكئون على بعضهم البعض، لم أفكر للحظة واحدة باستهدافهم، وأنا أعلم أن ما من رجل أو امرأة من هؤلاء إلا وقد تلوثت يداه بدماء الأبرياء، فهذا المجتمع لا يشبه المجتمعات الإنسانية، فالشعوب تصنع الدول، والدولة تختار من الشعب جيشًا لها ليحمي شعبها وأمنها القومي، ولكن هؤلاء الغرباء كانوا جيشًا غازيًا صنعوا لأنفسهم من كتائبهم ووحداتهم شعبًا، ما من رجل أو امرأة في هذا المجتمع إلا وخدم أو سيخدم في الجيش، إنه مجتمع عسكري بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يستطيع العدو الصهيوني أن يُجند الشعب في أي لحظة يريد القتال وفي كل الجبهات.

لقد شاهدنا هؤلاء العجزة يطلقون الرصاص عند الحاجة، فالفدائي الفلسطيني عندما يدخل إلى أي مدينة لهم ينهال عليه الرصاص من كل اتجاه، المار يطلق النار وكذلك السائق والتاجر والمعلم والطالب في الجامعة والعامل والمزارع، إنه مجتمع من العسكر يستوطن هذه الأرض، ورغم ذلك لم أختر هؤلاء هدفًا لي، إن هؤلاء يشكلون هدفًا مشروعًا لأنهم

استباحوا دمائنا، دمروا بيوتنا واحتلوا أرضنا، لكنني لم أرَ في استهدافهم مصلحة.

مضت ساعة وأنا أجلس في مكاني أتأمل المارة، هناك أم تُطعم ولدها، وسائق سيارة يتوقف أمام الإشارة الضوئية؛ ليعطي مجموعة من الأولاد الحق في المرور، بدأ الخوف يتسرب إلى النفس، فقد طالت المدة وأنا لم أجد الهدف الذي أتمنى. غادرت المكان وبدأت أمشي وأثناء تجوالي بأحد الأحياء رأيت مجندة ترتدي زيها العسكري وتعلق على كتفها سلاحها الشخصي، فكرت بمهاجمتها، لكن شيئًا بداخلي دفعني لرد هذه الفكرة، ربما لأنها أنثى، فالعربي الشرقي يعتقد أن مهاجمة الأنثى شيء مذموم، والحقيقة تقول إن نساءنا ليست كنسائهم.

لقد سبقونا في كثير ونحن ما زلنا ضحايا الجهل والتخلف، وما زلنا نمتهن المرأة ولا نعطيها أدنى حقوقها التي منحها الله لها. أين المرأة التي صنعها الإسلام في الجيل الأول؟! وأين هي الآن؟! لقد كانت مستشارة للنبي ﷺ، وجندية للدفاع عنه في الحرب وعوناً له في حفظ الدين. القرآن ساوى بين الرجل والمرأة في القطب الأعظم من الدين وهي التساوي في الولاية العامة، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]، فأين المرأة المسلمة اليوم وأين مثيلاتها في هذا الكيان المجرم؟. يقول الشيخ الغزالي: «إن المرأة اليهودية

في عام 1973م أذلت رجال العرب وقادت شعبها نحو الانتصار بعد أن كاد اليأس والهزيمة أن يتسرب إلى قلوبهم بفعل المفاجأة»، وربما كان السبب الكامن وراء عدم مهاجمتي لها هو أن النهار ما زال يتجلى وكنت لا زلت أنتظر مغيب الشمس.

ذهبت المجندة في طريقها وأنا تابعت المسير أتفقد أحياء المدينة ولم أر فيها أي معلم معماري عربي أو مسلم وكل المباني السكنية على طراز الفن الغربي وليس العربي الإسلامي اقتربت ساعة الغروب وبدأت الشمس بالنزول والليل يخيم على المدينة، صحب ذلك قلة الحركة، فالناس يأوون إلى مساكنهم في مثل هذا الوقت، حان موعد صلاة المغرب وأنا في وسط العفولة، قلت في نفسي إن أردت الصلاة الآن فلن يكون ذلك لصالحي فكيف سأذهب إلى ربي وألاقيه ولم أؤدِ واجبي؟ وحينها قررت أن أصلي بالإشارة وأنا جالس، وجودي في العفولة لم يثر فضول المارة ولم يشتبه بي أحد، كنت أتصرف وكأنني واحد من السكان.

10

استمررت في التجوال ودعوت ربي بأن ييسر لي أمري ويهديني سواء السبيل. من الصعب على الإنسان أن يصف الحالة النفسية التي يحياها وهو مُقدم على فعل يقوده إلى الموت، إنه قرار يمضي بالمرء إلى خارج المكان والزمان، تختلط المشاعر والأحاسيس، يوافق ذلك خوف شديد من اتصال يأتي من الأهل والأقارب، فقد طال غيابي هذه المرة، لم أكن أتمنى أن أنتهي بأي طريقة، لكنني كنت أسير نحو هدف يريح النفس ويركن فيه الضمير إلى ركن شديد. مررت على أسرة من أب وأم وأطفال صغار، كان الأب يحمل على ظهره قطعة سلاح، فكرت بمهاجمته والحصول على سلاحه

فعدلت عن الفكرة، خشيت أن يُصاب الأطفال والأم الحامل بأذى، لقد أغراني السلاح كما أغرى مهند الحلبي من قبل، لكن كيف السبيل إلى محاكاة البطل المعجزة مهند، هذا البطل المقدام كان قبل شهادته قد بلغ ذروة الرجولة والبطولة، إن المغاوير لا يستطيعون محاكاة مهند؟ لقد طعن الضابط والجندي وقام بإطلاق النار على الجنود والمستوطنين، فكيف لي أن أكون مثل مهند وأنا لم أحمل ولو لمرة واحدة قطعة سلاح ولا أعرف كيف تعمل؟ حدثوني عن أحد الإخوة الذي قام بعملية قرب مفرق مجدو فقتل ثلاثة جنود بسكينه واستولى على قطعة سلاح من أحد الجنود ثم فرّ من المكان، وبعد ساعات وأثناء البحث عنه التقى بثلاثة جنود داخل غابة في الأحراش فقام بتصويب سلاحه نحوهم وطلب منهم الاستسلام. قال أحد الجنود وهو يدلي بشهادته وكيفية اعتقال المنفذ إنني وأثناء استسلامي نظرت في السلاح في يد الفلسطيني فإذا به بلا مخزن فانقلب المشهد وتم السيطرة عليه.

لم أرغب بأن تكون هدفي هذه العائلة لهذه الأسباب وأهمها خوفي على حياة الأطفال والجنين ببطن أمه، إن ديننا يرفض استهداف الأطفال الذين لا ذنب لهم وأنا أرفض كل عمل يُقصد منه استهداف الأطفال، هناك بعض الأحداث وقعت نتيجة الجهل وغياب الوعي وهي لا تُعبر عن قيمنا الإسلامية، والأهم أنها ليست منهجية ولا وسيلة متبعة وإنما تقع من أفراد ينقصهم الوعي عدا أن هذه الأهداف لا تخدم قضيتنا العادلة، فنحن مظلومون ولا نطالب بحقنا بظلم الأبرياء، نحن لسنا صهاينة يعتبرون قتل الأطفال وسيلة للضغط والترهيب. وكذلك الناس العُزل

والآمنين في بيوتهم.

أثناء تجوالي في مدينة العفولة مررت بجانب بعض النُصب التذكارية وكانت مزروعة في بعض الأحياء، حجارة رخامية كبيرة وسوداء منها ما يحمل بعض الصور والأسماء، لا أعلم من هؤلاء ولماذا خُلِّدت أسماؤهم على هذا النحو وفي وسط المدينة، تذكرت النصب التذكاري للطيارين الألمانيين في مدينة جنين وقلت في نفسي ربما هذه النصب لطيارين ألمانيين أو بريطانيين سقطوا في الحرب العالمية الثانية وربما لطيارين يهود، حينها قاطعني أحد المساجين وقال لي: هذه النصب على الأغلب لجنود ومستوطنين سقطوا خلال انتفاضة الأقصى، تذكرت حينها البطل الكبير والقائد العظيم نظير حماد الذي روى بدمائه الطاهرة أرض العفولة انتقامًا للنساء والأطفال ودفاعًا عن المسجد الأقصى.

هناك مضى إلى ربه على درب الاستشهاديين عبد الكريم أبو ناعسة ومصطفى أبو سرية وعبد الكريم طحاينة ورائد زكارنة، ونظير حماد، واليوم يعانق نظير وسامر حماد في قريتي الحبيبة أبناء السواعد الذين رووا بدمائهم الطاهرة الزكية أرض القرية معلنين ولاءهم لفلسطين والقدس، وعلى سيرة الشهداء وفي طريقهم المُعبد بدمائهم وأشلائهم الزكية مضى بنا الوقت وكأنه سهمٌ انطلق من قوسه.

أمضيت تلك الليلة وأنا أستمع إلى قصص وحكايات الأسرى لاسيما الذاهبون والعائدون من سوريا والعراق. أبو حمزة الفلسطيني، هكذا يكني نفسه، تم اعتقاله على الحدود قرب هضبة الجولان السورية وأبو مصعب

تم اعتقاله بعد عودته من مطار اللد وكان والده قد خرج للبحث عنه فوجده في سوريا قرب الحدود مع تركيا وقصته تشبه قصة أحمد الذي ناشد والده بأن يعيده ويعمل على إعادته من سوريا مهما كان الثمن من هول ما رأى هناك، وأبو عمر المقدسي عاد من سوريا وكان يقاتل مع جبهة النصرة في معرة النعمان، يقول إن الأمر اختلط عليه بعد برهة من الزمن، فهو كان يدعي أنه خرج لقتال النظام السوري، لكنه وجد نفسه يقاتل داعش وجماعات الجيش الحر، وقد حدثت معه القصة التي قصمت ظهر البعير بقرار عودته، قال إنه في يوم قتال طويل مع إحدى الجماعات الإسلامية وكانت تابعة لداعش تقاتل في قرية من قرى معرة النعمان ونحن في قرية أخرى نقابلهم، وقد استخدمنا كل أنواع الأسلحة دون تمييز لاسيما أن القريتين مأهولتان بالسكان، وفجأة وأثناء القتال جاءت نعجة من القرية التي يتحكم بها أفراد داعش وقد أصيبت بطلق ناري من أحد المقاتلين، فتقدم حولها أحد المقاتلين وجرها باتجاهنا، وعندما وصلت تم ذبحها باتفاق الجميع؛ لأنها كانت تنزف من أثر الإصابة، لكن وقع خلاف بين المقاتلين هل يجوز لنا أكلها أم لا والسبب أننا نفعل ذلك دون إذن صاحبها وما لم تستأذنه في الأكل فهو حرام، وهذا كان رأي معظم المقاتلين، لكن تم الاتفاق على أن يتم أكلها والانتفاع بها، وبعد انتهاء المعارك يتم البحث عن صاحبها من أجل تعويضه بشاة أو مبلغ مالي، فيما بعد تمت السيطرة على قرية داعش والقضاء على من فيها، ولا أدري إن كان صاحب الشاة من الأحياء أم الأموات، لكن المفاجأة الأخرى التي عززت من قراري بعد حادثة الشاة هي أنني رأيت القتلى يرفعون السبابة معلنين شهادتهم

عـلى التوحيـد، فسـألت نفـسي: أيـن الحـق؟ فحملـت نفـسي في غفلـة منهـم وقـررت العـودة حتـى لـو كان مصـيري المؤبـد في سـجون العـدو الصهيـوني.

كانـت معـالم النـوم تظهـر عـلى وجـه أبـو عمـر، لم يتبـق مـن سـاعات الصبـاح إلا القليـل لذلـك ركـن الجميـع ومنهـم مـن سـبقنا في النـوم، أغمضـتُ عينـي ولم أسـتيقظ إلا عـلى صـوت السـجان الـذي جـاء لينذرنـا باقـتراب مجيء البوسـطة وطلـب منـا أن نتجهـز، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى جـاء النحشـون إلى الغرفـة وقيدونـا، ثـم أخرجونـا إلى البوسـطة لتنطلق بنا السـاعة السـابعة صباحًا إلى مقـر المحكمـة في النـاصرة، فسـارعت بالجلـوس عـلى الكـرسي القريـب مـن الشـباك لأتمتـع بالنظـر للجليـل وقـراه، لقـد كان الجـو بـاردًا، وزيـادة عـلى ذلـك كانـت الكـراسي المخصصـة للجلـوس مصنوعـة مـن الحديـد وكأنهـا قالـب مـن الثلـج، وتسـبب أمراضًـا كثـيرة لـلأسرى، فالكـرسي غـير مبطـن ولا يسـمح لـك بـأن تضـع أي قطعـة قـماش حتـى لـو كانـت سـجادة صـلاة، فالبوسـطة رحلـة عـذاب للأسـير وتسـتخدمها إدارة السـجون كأداة مـن أدوات العقـاب، وكثـير مـن الأسرى يتـم عقابهـم مـن خـلال النقـل المسـتمر.

واصلـت البوسـطة المسـير وأنـا واصلـت إمعـان النظـر في الجليـل وكأني أنظـر إلى فتـاة فاتنـة الجـمال. وصلنـا إلى مشـارف مدينـة النـاصرة التـي تعـد مـن أكـبر التجمعـات الفلسـطينية داخـل الأراضي المحتلـة عـام 48، فرحـت لسـببين: الأول أننـي قـد اطمأننـت وزال الشـك مـن النفـس، فالذهـاب إلى المحكمـة أكيـد ولـن أعـود إلى الجلمـة ويعني ذلـك أنني لم أكـن عنـد العصافـير والقسـم الموجـود في جلبـوع والـذي نزلـت فيـه هـو حقيقـي ولـلأسرى، ومـع ذلـك قلـت في نفـسي الحـذر واجـب والثقـة لا تلغـي الحـذر، فهنـاك الكثـير مـن

الأسرى تـم إعادتهـم إلى التحقيـق نتيجـة الثرثـرة الزائـدة أو نتيجـة اعـتراف عليهـم، فالعـودة متوقعـة إلى التحقيـق في كل لحظـة مـا دام الأسـير قيـد الأسر والمخابـرات لا تـترك أحـدًا، وتتجسـس كل حـين لتعـرف كل جديـد وكل مـا خفـي عليهـا.

هنـاك أسرى يتـم تحويلهـم إلى التحقيـق يـوم الإفـراج عنهـم، وهنـاك مـن تـمَّ الإيقـاع بـه مـن خـلال أجهـزة التنصـت في الأمتنـاه وقاعـة المحكمـة وفي البوسـطة، الكثير وللأسـف يعتقـد أن هـذه الأماكـن آمنـة، والأغـرب مـن ذلـك أن بعـض الأسرى تـم التجسـس عليهـم أثنـاء الإفـراج عنهـم حتـى يتـم التأكـد مـن عـدم صلتهـم بحـادث معـين كـما حـدث مـع أخويـن مـن قـرى أم الفحـم تـمّ اتهامهـما بقتـل شرطـي، وأمـا السـبب الآخـر لفرحتـي فهـو شـعوري بأنـني قريبًـا سـأنزل مـن هـذا الصنـدوق المميـت؛ لأن البوسـطة تفتقـر إلى أدنـى المعايـير الصحيـة والإنسـانية.

دخلنـا إلى مقـر المحكمـة بعـد أن تـم إنزالنـا إلى الأمتنـاه وتفتيشـنا، عندمـا دخلـت الأمتنـاه شـعرت أن الحـراس ينظـرون لي بعـين السـخط دون سـواي، كانـوا يتهامسـون فيـما بينهـم وكانـت نظراتهـم مليئـة بالحقـد. شـعرت بالخـوف لا سـيما أننـي تعرضـت للـضرب والإهانـة في هـذا المكان بعـد اعتقـالي بـعشرة أيـام، الشـعور بالخـوف لم يسـتمر طويـلًا فأنـا القـادم مـن المـوت فـماذا أخشـى بعـد ذلـك؟! لـن يرعبنـي هـؤلاء الجبنـاء.

دخـل أفـراد النحشـون إلى الأمتنـاه بعـد أن تـم تقييـد يـدي مـن خلـف البـاب، هـددوني بـأن أي حركـة منـي داخـل قاعـة المحكمة سـيكون لهـا عواقب

وخيمة، لم أفهم ما السبب الداعي لهذا التهديد، هل كون الأهل موجودين داخل قاعة المحكمة؟ أم أن ذوي الجندي المصاب حضروا لمتابعة محاكمتي ولا يريدون مني أي حركة؟ دخلت للقاعة ونظرت إلى مقاعد الحضور ولم يكن أحد من الأهل هناك، بعد فترة جاء المحامي وأخبرني بأن لائحة إتهام ستقدم ضدي في هذه الجلسة، فور بدء الجلسة دخل فوج من الصحفيين إلى قاعة المحكمة وبدأوا ينهالون علي بالأسئلة، وقد التزمت الصمت حتى لا أعطي أفراد النحشون فرصة من أجل ضربي.

انتهت الجلسة وغادرنا إلى سجن سلمون وهناك انتظرنا يومًا آخر للعودة إلى جلبوع، وفي مساء اليوم التالي عادت بنا البوسطة إلى جلبوع، وكعادتي أثناء الطريق جلست بجانب الشباك لأمعن النظر من جديد بجمال الجليل، كانت الفرحة تملأ قلبي وكأنني عائد إلى بيتي، والسبب الكامن وراء ذلك هو أن السكينة بدأت تنزل على النفس، فالشعور بالخوف زال بعد أن تأكدت أن الأسرى الذين دخلت إلى قسمهم ليسوا عصافير، ولكن لابد من التذكير بمسألة ربما أشرت لها سابقًا وهي أن المخابرات لا تترك أقسام الأسرى الأمنيين بلا عيون لها، فالجواسيس لا تخلو منها، والهدف من وجودهم بين الأسرى مهم جدًا منها متابعة ما يجري داخل الغرف والأقسام ومعرفة أي جديد ومعرفة توجهات الأسرى ومشاريعهم وخصوصًا المنوي الإفراج عنهم قريبًا، وكذلك البحث عن ضحايا جدد لكي يتم تجنيدهم.

وصلنا السجن بعد ساعة ونصف من السفر، دخلت القسم بعد أن اطمأن الإخوة وعرفوا ماذا جرى في المحكمة، دخلت إلى الغرفة وهذه

المرة كان دخولي الأول إلى غرف حركة الجهاد الإسلامي رغم أنني لم أمكث سوى أسبوع واحد داخل غرف الإخوة في حركة فتح إلا أنني لمست اختلافًا وتباينًا بين الأسرى، فكل تنظيم له عاداته وقوانينه وله أعرافه وقيمه منها المختلف ومنها المتشابه، وهكذا بدأت مشواري داخل السجن.

أخذت الأيام تمضي، وفي كل يوم أكتشف جديدًا، وبدأت الصورة تتجلى أكثر أمامي، فالمجتمع الملائكي المتخيل عن الأسرى بدأ وكأنه حلم، فالحقيقة تقول إنهم بشر يصيبون ويخطئون، كانت الصورة للأسرى في وعيي أنهم أقرب للملائكة منهم للبشر، لا أقول إنها تبددت ولكنها أصبحت أكثر واقعية، فالحركة الأسيرة اليوم ليست الحركة الأسيرة بالأمس، لقد كانت سابقًا من أهم معاقل الثورة ومحاضن المقاومة، لكنها اليوم تراجعت عن هذا الدور وتفشت داخلها الكثير من الظواهر السيئة، وللإنصاف هذا لا ينطبق على كل التنظيمات.

قد كان للانقسام دور كبير في تكريس واقع التجزئة لاسيما بين فتح وحماس وأصبحت التنظيمات تبحث عن مصالحها الخاصة وقلما تبحث عن مصلحة المجموع، حماس تعيش في أقسام خاصة وفتح في أقسام أخرى، والتنظيمات الأخرى موزعة بين التنظيمين، حركة فتح تمثل ما يقرب من 55 ٪ من الحركة الأسيرة وأي محاولة إصلاح لا يمكن لها النجاح دون مشاركة فتح، وواقع فتح لا يسر صديقًا، فبعد تاريخ طويل من النجاح انقسمت فتح نفسها وانهار التنظيم الداخلي، ولم تعد المعايير الوطنية والعلمية هي التي تحكم التنظيم وإنما منطق المصالح والمناطقية والبلدية هو الأساس الذي يحرك الأسرى داخل الحركة، فالأقسام والسجون

مقسمة بين الشمال والجنوب، والشمال مقسم بين جنين وطولكرم ونابلس والقدس والداخل (48)، والجنوب مقسم بين غزة والخليل وبيت لحم ورام الله، وفي بعض السجون تتوزع الأقسام بين الريف والمدينة والمخيم، وما يحزن القلب أن فكرة الانقسام هذه هي فكرة أحد قادة السجون والذي ارتقى إلى الدرجات العُلا بفعل إنجازاته في هذا المجال.

إن التشرذم موجود من القمة إلى القاع، فبعيدًا عن التقسيم الفصائلي للغرف وربما يكون منطقيًا ومقبولًا، فلكل فصيل خصوصياته وبرامجه التنظيمية، والثقافية، لكن غير المعقول أن الغرفة داخل التنظيم الواحد وفي ذات القسم مقسمة بين المناطق، وفي كثير من الأحيان يهبط التقسيم إلى أدنى المستويات، فهذه الغرفة للقرية وتلك للمخيم وتلك للمدينة، وبعضها مشترك بحكم الدافع لا بحكم المنطق.

هذه المعايير تتسرب في بعض الأحيان إلى الفصائل الأخرى مثل حماس والجهاد، والجبهتين جراء الضعف التنظيمي أو بفعل قلة التجربة لكثير من الأسرى الجدد، لكنها ليست المعيار الأساسي الذي يحكم هذه التنظيمات كما يجري في فتح، وقد تفاجأت مع مرور الأيام بظاهرة سيئة وليست بسيطة تنتشر بين الأسرى، وهي حدوث خصومات ونزاعات بشكل ملحوظ وقد شهدت العديد منها، الأسباب وراء ذلك متعددة أهمها غياب القانون التنظيمي وضعف الالتزام التنظيمي لدى الفصائل، كما تمنيت أن لا تُخدش صورة الحركة الأسيرة في نفسي، لكن الحقيقة تقول غير ذلك، لذلك بدأت أنزل عن الشجرة إن جاز التعبير وأنظر إلى الأسرى بواقعية، فهنا لا أرى المحاضن التربوية ولا كليات القادة

وأكاديميات الكوادر، المستوى الثقافي بسيط، والاهتمام بالقراءة والعلم لا يرقى إلى الحد الأدنى، اهتمام كبير بالحزبيات والأمور الصغيرة، كل البرامج التعليمية متواضعة وإن وجدت فهي شكلية، وللإنصاف لا أعمم في هذا الرأي، فهناك من يهتم بالتعليم وتعزيز الثقافة الذاتية والاهتمام بالوقت، لكن الحجم والعدد محدود لا يتناسب مع حجم الحركة الأسيرة. الجامعة العبرية تم إلغاؤها ومُنع هذا الامتياز الذي حققته الحركة الأسيرة أيام مجدها وعزها، والجامعات الفلسطينية التي تم اعتمادها دون موافقة إدارة السجون تسير كالعرجاء في السجون مع بعض الإنجازات الملحوظة في بعض المواقع مثل سجن هداريم، وهناك مشكلة مع الجامعة المعتمدة في أقسام حماس وهي جامعة الأقصى، فالسلطة من خلال وزارة التربية والتعليم ترفض الاعتراف بها، عدا أن التعليم شكلي من قبل الأسرى، وقلة من يهتم بالجوهر، وقد انتسبت لإحدى الجامعات، وتجربتي رغم تواضعها تقول إن الطلاب قليلًا ما يهتمون بالثقافة والعلم وإن الهم الأول هو الحصول على الشهادة بأي ثمن، وحقل الوعي والتجربة في أخر سلم الأولويات، لذلك لا تجد بين فئات الطلاب طالباً مثقفاً يسعى لغاية وهدف سامٍ من خلال الدراسة، ولكي أكون مُنصفًا لا بد من التذكير بأن إدارة السجون تتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية، فهي تمارس التضييق والتعسف وتعمل على تعطيل العملية التعليمية من خلال منع الكتب الخاصة بالجامعة، ونقل الأسرى ذوي الكفاءات الذين يقومون على إدارة الجامعات، ورغم كل ذلك أقول إن الجامعات وتفعيلها داخل السجون إنجاز ويُحسب للأسرى، لكن لابد من تطوير هذا المجال والاحتكام أكثر

إلى المعايير العلمية في العملية التعليمية، وكل ما ذكرته ليس إلا نقدًا بناءً وليس نقدًا يهدف إلى الطعن والتشهير وبخس الناس أشياءهم.

أما في مجال القراءة والاهتمام بالوقت فحدث ولا حرج، وهذا الأمر يتفاوت بين التنظيمات، والأسرى اليوم لا يصنفون بأنهم قراء، وحال الأمة العربية في هذا المجال ينطبق على الأسرى أيضًا، فهناك من أمضى 10 سنوات ولم يقرأ كتابًا، وغالبية الأسرى الجدد لا يقرأون والكثير منهم لا يحسن القراءة مع أن الكثير منهم يحمل شهادة التوجيهي، وهذه مصيبة أخرى، المكاتب في كثير من الأقسام مهملة ولا تَلْقَى أي اهتمام وهناك تضييق على إدخال الكتب من قبل إدارة السجون، وهذه الخطوة تعتبر من استراتيجية إدارة السجون والتي تهدف من خلالها إلى إفراغ الأسرى من محتواهم النضالي، وأما عن الوقت فاهتمامات الأسرى متنوعة، والزمن مهدور من خلال برامج التلفاز والمباريات بالإضافة إلى المسلسلات والأفلام، وقد قامت إدارة مصلحة السجون بحذف كل القنوات التي تحتوي على بعض البرامج المفيدة والأخبار ذات المصداقية تحت حجة التحريض، فنحن لا نشاهد سوى عشر قنوات تقريبًا، منها قناتان للرياضة وقناتان للأفلام وقناتان للمسلسلات وقناتان عبريتان للأخبار اليهودية وأخرى عربية للأخبار، وهذه الأخيرة لا تمت للمصداقية والحقيقة بصلة وتعمل على تزييف الوعي، وللإنصاف والحقيقة نقول إن القناتين الصهيونيتين تتمتعان بالمصداقية أكثر من القناة العربية، والمحطات التي نشاهدها تعتبر جزءًا من الوسائل التي تستخدمها إدارة السجون لمحاربتنا، فالأسرى يمضون أغلب أوقاتهم بمتابعة هذه القنوات التي تعمل على

هدر الأوقات وتزييف الوعي وحرف الانتباه وتعزيز قيم الفردية والسلبية بين صفوف الأسرى. التلفاز في السجن يعتبر صلة الوصل بين الأسير وعالم الحرية لذلك يمنعون أهم الوسائل التي يمكن الاستفادة منها في السجن، فإدارة السجون لا تجد وسيلة أنجع لعقاب الأسرى وردعهم بحرمانهم من التلفاز بوقت الأزمات.

11

حدثني الأسرى القدامى عن حال الحركة الأسيرة قديمًا فزاد حزني على حالها اليوم، فحقًا إن التشابه بعيد، الثقافة والانضباط والالتزام، القراءة والعلم، الحس الوطني والأخلاقي، الاهتمام بالوقت وملئه بالمفيد، محاربة الحزبية والبلدية والمناطقية، التعبئة والتوجيه وتخريج الكوادر والقادة وإمداد الأرض المحتلة بطاقة هائلة من المقاومين الأحرار؛ كلها ميزات كانت تمتاز بها الحركة الأسيرة سابقًا، وقد غاب هذا الدور اليوم وانقلب رأسًا على عقب.

وهكذا مضت الأيام والأسابيع وأنا أكتشف كل يوم جديدًا منه الطريف ومنه الغريب ومنه المخزي والمعيب، ومنه ما تنحني له قامات

العظماء، فالخير موجود في كل مكان، وهناك كثير من الأسرى مدعاة للفخر، والإنجاز موجود وملحوظ، ولكنني أحاول تشخيص الداء والمرض كي يتعافى الجسد، فالجسم السليم تؤلمه شوكة صغيرة وتقتله جراثيم ضئيلة قد لا يُلقي لها المرء بالًا.

جديد اليوم كان اللقاء مع الأهل والأحبة من خلال الزيارة، فالشهور الثلاثة الأولى في السجن كانت تمر وكأنها سنوات، فأنا لم أتعود على الغربة، ولم يحدث أن انقطع التواصل بيني وبين الأهل من قبل كان الشوق كبيرًا والحاجة للاطمئنان على الأهل وأخبارهم شديدة، كنت أرى الأسرى العائدين من زيارات الأهل والفرحة تملأ قلوبهم وكم تمنيت أن أكون أحدهم، لقد كنت أتأثر كثيرًا بالأيام المخصصة للزيارة، لاسيما أنها كانت التجربة الأولى لي في السجن، ولم يصلني من الأهل أي خبر ولم أستطع حتى إرسال رسالة تطمئنهم عن أخباري، وفجأة في لحظة هروبي من الواقع وأنا أمعن النظر بالعائدين الفرحين من الزيارة، جاء أحد الإخوة ليخبرني بأن أتجهز لزيارة الأهل، لقد كان وقع الخبر كبيرًا ولم أصدق ما أسمع، توجهت إلى حلاق القسم وفعلت كما يفعل الأسرى على عجل من كي الملابس وتصفيف الشعر وتنسيق الهندام.

خرجنا من القسم تباعًا وتجمع الأسرى من كل الأقسام في الأمتناه وبعد أن اكتمل النصاب دخلنا إلى قاعة الزيارة، ولم يكن الأهل قد دخلوا.

كان أول المفاجآت والتي خيبت أملي وجود الحاجز الزجاجي بيننا وبين الأهل، المعلومة أعرفها من قبل، لكن المخبر ليس كالمعاين. الغرفة

المخصصة للزيارة صغيرة جدًا ولا تصلح لهذا العدد الكبير من الزوار، كل أسير يجلس على مقعد وشباك مخصص ويكاد يلتصق بمن يجلس بجانبه، وقلت في نفسي: كيف يتحدث الناس بخصوصياتهم بمثل هذا الوضع؟ وكذلك المكان المخصص للأهل لا يصلح ولا يناسب أعداد الزوار، فنحن 18 أسيرًا والمساحة ثلاثة أمتار عرضًا، وخمسة أمتار طولًا، وكل أسير يأتي لزيارته ثلاثة زوار، وهذا العدد المسموح به، لا يوجد خدمات صحية داخل قاعة الزيارة، وفي حال اضطر الأسير لذلك يعود للقسم وإن سمح له بالعودة إلى الزيارة يكون الوقت قد مضى ولا يتم تعويضه، الحديث مع الأهل يجري من خلال الهاتف وهناك لافتة تقول: إن المكالمة مسموعة ومسجلة.

لم يمض وقت طويل حتى جاء الأهل وبدأوا بالتوافد. كان قلبي يدق بسرعة وعيني ترقبان الباب المخصص لدخول الأهل على شوق كبير لمعرفة من القادم، وما هي سوى لحظات حتى حط بصري على أحب الناس إلى قلبي. كان القادم الأب الحنون، كانت الفرحة كبيرة مع أن الحزن يلفُني ويملأ قلبي، فالأشهر التي غاب بها طيف الوالد قد فعلت فعلها به، فها قد اشتعل الرأس شيبًا والسواد معلم الشباب غاب وتبدل بلون الثلج الأبيض، يبدو أن غيابي كان طويلًا وأحدث غصةً في الدار.

اقترب الوالد مني وانهالت دموعي لا إراديًا، كانت كلماته الأولى لي بعد أن رفع السماعة هل كتفك بخير؟ ماذا حل بيدك؟ طمأنته على كتفي وهدأت من روعه بعد أن حركت يدي وأظهرت له بفعلي ذلك أنني بخير، قال لي: كفكف دموعك ولا تحزن واطمئن فنحن جميعًا بخير، ثم بادلني البكاء وسقطت دموعه من مقلتيه كحبات اللؤلؤ.

كانت الزيارة تمضي بسرعة وأسئلتي عن الدار وخصوصًا الوالدة لا سيما أنها لم تأت وسألت عن السبب وراء ذلك، قال لي: لا يوجد تصريح دائم لنا، فاتفقنا على أن أكون أول الزائرين وتكون هي الثانية لنكسب زيارة إضافية، هكذا يفعل معظم الأسرى، فحرمان الأسير من زيارة ذويه متواصل من خلال التصاريح الأمنية التي تصدرها المخابرات، قليل من الأسرى يحظى بالتواصل مع الأهل طوال العام، وإن حدث ذلك فلا يشمل التصريح جميع الأهل.

لقد كان يوم الزيارة من أجمل أيام حياتي رغم قباحة المكان وظلم السجان، وقد وفر لي راحة نفسية كبيرة لا توصف، وشحنني بطاقة إيمانية جبارة. الزيارة تعني الكثير للأسير فهو بحاجة ماسة لها لا سيما أنه يستشعر قيمة الأهل، وهذه أول الخبايا النفسية التي يشعر بها الأسير بعد اعتقاله، يتحول الأهل في حياة الأسير إلى شيء مقدس. قلة من الأسرى من ينتظر الزيارة من أجل حاجاته المادية.

عُدت إلى القسم وقد أصبحت شخصًا آخر بعد الزيارة وكأن لي جناحين أُحلق بهما في السماء من شدة الفرحة، وبدأت أفكر بموعد الزيارة القادمة وكيف سيكون لقائي بالأم الحنون، وماذا سأحدثها وكيف سأخفف عنها وأُطيب خاطرها، فهي الشق الثاني من القلب بعد شقي الأول وهو الوالد الحبيب. لم يسمح لي الأسرى بالهروب الفكري وهذه عادة مذمومة يعمل الأسرى على محاربتها من خلال التفاعل الاجتماعي، فالاعتقاد السائد أن الوحدة والهروب بالفكر يؤدي إلى الإحباط وضعف النفس وانهيارها، لقد عاد الأسرى وكل واحد منهم يحمل في جعبته خليطًا من الأحزان والأفراح.

مضت الأيام واقترب موعد الزيارة، لكن الفرحة لم تكتمل، فالأم تم تمزيق تصريحها على حاجز، ولم يسمح لها بالزيارة، في البداية اعتقدت أن هذا الأمر لم يحدث من قبل وأنني الوحيد صاحب الحظ العاثر، لكنني علمت أن ذلك يحدث مع كثير من ذوي الأسرى ولا تكاد تمضي زيارة إلا ويُعاد عدد من ذوي الأسرى، فهؤلاء القوم يتلذذون بعذاب الناس، لقد أصابني حزن شديد وكان حزني أشد على الوالدة التي كانت تنتظر زيارتها الأولى على أحر من الجمر، فأنا ابنها الذي عاد من الموت، فالخبر الأول الذي تلقته بعد تنفيذي للعملية أنني استشهدت، كانت ليلة تنفيذي للعملية من أشد الليالي على قلب أمي، والساعات التي مضت حتى تأكد خبر بقائي على الحياة تساوي عند الأم المكلومة سنوات طويلة، لم يكتب لي ولها اللقاء بفعل شياطين الإنس الذين نُزع من قلوبهم الرحمة، وهكذا لم تكتحل عيوننا برؤية بعضنا البعض، وعلينا الانتظار حتى يصدر تصريح جديد ويُكتب لنا اللقاء.

عدت إلى الإخوة ووجدتُ أخًا عائدًا من الزيارة وهو يذرف الدموع، وبعد أن التف حوله الأسرى وقادوه إلى غرفته علمت أن والده توفاه الله.

مصيبة الموت بالسجن هي من أصعب اللحظات التي يعيشها الأسير، وما يفاقم هذه المأساة أن الأسرى محرومون من لقاء ذويهم بشكل منظم ولا يسمح لهم بالتواصل من خلال وسائل الاتصال ويحرم الأسير من إلقاء النظرة الأخيرة على فقيده، هناك مئات الأسرى لم يتحدثوا ولم يلتقوا بوالديهم المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون السفر والتنقل،

وقد حدثني أحد الأسرى أنه لم يتحدث مع والدته ولم يرها منذ 18 عامًا لذات الأسباب، قال لي: مسموح لها الزيارة، لكن لا تستطيع المجيء بسبب المرض، وعندما قدمت طلب اتصال هاتفي كان الرد أن والدتك مسموح لها زيارتك ولها تصريح، لقد تم رفض طلبي وهم يعرفون السبب.

وفاة والد الأسير أصابتني بالهذيان والحزن وتذكرت كلمات أبي في الزيارة حينما أخبرني أن جدي زاره مرة واحدة أثناء سجنه ثم توفاه الله، قال لي مازحًا: أخشى أن تكون زيارتي لك هي الأخيرة، كان الأسير يبكي بكاءً شديدًا، قلت في نفسي: الموت ولا هذه اللحظة.

اليوم وبعد زيارة الأهل تم إبلاغنا من قبل إدارة السجون ومن خلال الدوبير أننا سننتقل إلى قسم آخر، وهذه المرة الثالثة التي ينتقل بها قسمنا خلال هذه المدة القصيرة، والحجة إصلاح القسم وإجراء تفتيش وبعض التعديلات على الحمامات، فدورات المياه غير مجهزة من ناحية أمنية ويجب تبديلها، والسبب أن الأسرى في سجن جلبوع قاموا بحفر نفق من خلال دورة المياه.

طبعًا هذه النقلية لم تكن الأخيرة؛ لأن هذه السياسة معتمدة من قبل إدارة السجون تحت حجج واهية وتهدف من خلال هذه العملية إلى زعزعة الاستقرار داخل الأقسام، فالعدو اللدود للأسير في السجن هو غياب الاستقرار الذي يسبب الراحة النفسية في كثير من الأحيان، هذا الإجراء التعسفي لا يواجه إلا بقليل القليل من الاحتجاج، فنحن في هذا السجن نعيش في خمسة أقسام، وكل قسم يتصرف لوحده ولا يوجد دوبير

عام للسجن، وكل قسم له دوبير خاص به، والتنسيق محدود مع أن الأقسام يمثلها تنظيم واحد أمام الإدارة، والتنظيمات الصغيرة لا تملك من أمرها شيئًا.

بدأت عملية النقل في اليوم التالي وبدأنا الخروج، وعندما دخلنا القسم تفاجأنا بجيش جرار من الشرطة ووحدات التفتيش، كان السجانون يجلسون على الكراسي وأمامهم الطاولات، تم تفتيش كل الأغراض ومن ضمنها التفتيش العاري، وهذا الاجراء تقوم به وحدة التفتيش عندما تقتحم الغرف للتفتيش عن الأجهزة النقالة وهي مخصصة لهذا الغرض في السجون الأمنية وللبحث عن المخدرات في السجون الجنائية، وقد شهدت عملية اقتحام مرة واحدة مُنذ دخولي السجن، كان ذلك في الساعة السادسة صباحًا بعد عدد الصباح، قام أفراد الوحدة باقتحام الغرفة، كان المشهد غريبًا فأنا للمرة الأولى أراهم يدخلون مدرعين إلى الغرفة ولا تكاد ترى منهم شيئًا سوى الخوذات على الرأس وباقي الجسم مدرع، وهذه العملية هي جزء من السياسة المتبعة من قبل إدارة السجن حتى يُدخلوا الرعب في قلوب الأسرى.

دخلوا إلى الغرفة وأيقظونا من النوم، وقف أمام كل أسير سجان من الوحدة، وبعد التأكد من استقرار الوضع وعدم وجود مقاومة كما يحدث في بعض الأحيان، بدأ التفتيش الشخصي، ومن ثم إخراج جميع أغراض الغرفة للخارج، مكث التفتيش مدة أربع ساعات.

وحدة التفتيش تختلف اختلافًا كبيرًا عن وحدة المتسادا المخصصة لاقتحام الأقسام في حالة العصيان والتمرد، فهذه الوحدة يحمل أفرادها

سلاحًا يطلق رصاصًا من الفلفل والمطاط وهي الوحدة التي قتلت الشهيد محمد الأشقر في سجن النقب، ويستخدمها العدو الصهيوني في أحيان كثيرة لقمع المظاهرات، وهي وحدة للاقتحام والسيطرة ولا تختص بالتفتيش.

يبقى التذكير بهذا الخصوص أن وحدة المتسادا الخاصة بالاقتحام ووحدات التفتيش هي وحدات خاصة بإدارة السجون، والعاملون بها هم من السّجانين، وتحاول إدارة السجون من خلال هذه الوحدات إلقاء الرعب في قلوب الأسرى حتى يسهل السيطرة عليهم، والأسرى يدركون ذلك وكثيرًا ما تم مواجهتها وردها على أعقابها، لكن حالة التمزق التي تعيشها الحركة الأسيرة هي من أعطى هالة لهذه الوحدات، وهكذا لم تمضِ أسابيع حتى جاءت إدارة السجون لتنبئنا بقرار جديد، وهو إخلاء القسم ونقله إلى سجن مجدو بحجة إعادة إصلاح وتأهيل القسم.

الخبر وقع كالصاعقة على القسم، فهذا النقل يعني أن كل أسير محكوم مؤبدًا ومتهم بمحاولة الهرب أو مهاجمة السجانين لن ينتقل إلى مجدو، ومرت ثلاثة أيام والحديث متواصل مع إدارة السجن وبمشاركة كافة الأقسام للكف عن هذه العملية، لكن إدارة السجن رفضت وأصرت على تنفيذ القرار، لم أرغب في الانتقال وحاول الإخوة منع ذلك، ولكن لم يتمكنوا منه، وتم نقلي بعد الحصول على وعد من ممثل التنظيم بإرجاعي بأسرع وقت وقد تم الأمر، لكن الثمن كان كبيرًا، فيوم عودتي إلى جلبوع كان يوم زيارتي الذي حضرت به أمي، لكن قدر الله أن لا يحدث ذلك، ومرة أخرى خاب أملي وأمل أمي باللقاء.

هناك في مجدو حكاية أخرى، فالطريق إلى مجدو مليئة بالذكريات، فبعد أن أنهينا السير في سهل بيسان صعدنا إلى قرية زرعين وشاهدنا أثر القرية التي هدمت عام 1948م، ومن هناك واجهتنا جنين بقراها وجمالها وسهولها ومنها قريتي العرقة التي لم أشاهد سوى الجبال القريبة منها، كان الإحساس في النفس عظيمًا وكأنني أنظر إلى الأهل والأحبة، وعلى الجهة الأخرى كانت مدينة العفولة تجلس على سهل مرج بن عامر وكأنها امرأة أجنبية عارية في بلد محافظ.

وصلنا إلى مجدو وقامت إدارة السجن بالإجراءات المتبعة من تفتيش وتشخيص وغيرها، ومن ثم إدخالنا إلى القسم الذي لم يكن على ذات الطراز الذي يقوم عليه سجن جلبوع، قالوا عن جلبوع إنه نموذج ايرلندي ومجدو أمريكي ولا أعلم صحة هذا القول، في مجدو تعرفت على إخوة جدد تركوا أثرًا كبيرًا في نفسي ولهم مكانة كبيرة في الوجدان، لكن القصة الأكثر قسوة والتي كشفت لي من جديد بعض مآسي السجن هي قصة الأسير أبو مصعب؛ هذا الأخ جاء فور وصولنا القسم ليملأ الفراغ، فكثير من الإخوة لم يسمح لهم بالنقل إلى مجدو لأسباب عدة، لذلك تم سد الفراغ الذي تركوه بإخوة جدد منهم أبو مصعب الذي دخل وحيداً وجلس وحيدًا، وقد لفت انتباهي أن قلة من الأسرى بادروا للترحاب به وكنت أحدهم.

لقد شدني أبو مصعب بصمته وهدوئه فهو لا يتكلم إلا قليلًا، من أجل ذلك كنت أجلس بجانبه وأتمشى معه، لكن ذلك لم يستمر طويلًا، فقد جاء أحد الإخوة المقربين، وقال لي: ابتعد عن هذا الرجل! فأثار بقوله استهجاني وسألت عن السبب فأجاب بعد إلحاح طويل أن هذا الرجل

متهم بالخيانة، وحدث ذلك أثناء التحقيق وقد اعترف بذلك فور خروجه من التحقيق وقصته معروفة للجميع. هذا الرجل يمثل فئة قليلة جدًا من الأسرى الذين ينهارون في التحقيق ولا يتحملون قسوة السجن وفراق الأهل، لذلك كان من السهل على المحققين تجنيده؛ لأنه يبحث عن كل الطرق للخلاص من السجن حتى لو كانت الخيانة وبيع الوطن والقضية، السجن قاسٍ وصعب، وأقسى ما يكون في أول أيامه وساعاته؛ لذلك تجد البعض من الأسرى الذي يضعفون ويطلبون من محاميهم أثناء المحاكم الإبعاد، وهذا ضعف يعبر عن حالة يأس وغياب القدرة على التحمل، وهناك البعض من حاول الانتحار، ومنهم من انتحر بعد الإفراج عنه من آثار نفسية عليه أثناء اعتقاله، والبعض منهم يبادر ويعرض نفسه للتعامل مع المخابرات لقاء وعود بالإفراج عنه في الحكم.

أبو مصعب واحد من هؤلاء، فلم يصبر ولم يتحمل فراق الأهل والأحبة، وضاقت نفسه، فالسجن يسلب خاصية الإنسان وهي الحرية. والحرية هي إنسانية الإنسان، فعندما يفقد حريته يفقد الكثير من إنسانيته، لذلك كان السجن من أكبر وسائل العقاب، والقرآن الكريم أشار إلى هذه الحقيقة، ففرعون الطاغية الكبير والذي يملك كل وسائل القوة عندما تعرض لتهديد حقيقي لعرشه من قبل النبي موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]. لم يقل له سأقتلك، سأعذبك؛ لأنه يعرف أن السجن أكبر عقاب للإنسان، وكذلك النبي محمد ﷺ عندما هدده كفار قريش قال القرآن

عن ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

السجن كما قال الفنان دريد لحام (غوار الطوشة) في مسلسل عودة غوار: «السجن ليس للرجال، السجن يهدم الرجال»؛ لذلك على المناضل والمجاهد أن يصبر على السجن ويكون ذلك من خلال الوعي والإيمان بالقضية التي يدافع عنها، فهذا الأسير كان يحمل روحه على كفه لا يبالي بالموت، كيف يضعف وكيف ينهار؟! يجب أن يبقى صابرًا مرابطًا مؤمنًا بعدالة قضيته، لا يبالي بالسجن ولا بالسجان، يجب ألا يحطمه السجن بل هو الذي يحطم السجن، ونحن نرى مئات النماذج رغم سوء الواقع قد أمضوا عشرات السنين دون أن ينال منهم السجن.

لقد ضعف أبو مصعب ولم يتحمل، وكان عليه أن يصبر فالنصر صبر ساعة، وقد أخطأ عندما جزع وارتكب جريمة عندما اعتقد وفكر أن خيانته ستنجيه، فقد قتل نفسه وأذلها حيث أراد النجاة، وها هو الآن يدفع الثمن، والمطلوب منا أن نعمل على إصلاحه، لكن هذا الخطأ للأسف لا يغفره الناس، وأنت جديد في السجن وليس من المحبذ أن تقيم علاقة معه.

12

رحلتي إلى مجدو كانت تجربة رائعة، لكن مجيء الوالدة لزيارتي في يوم نقلي أحزنني كثيرًا، خصوصًا أن زيارتي ليست دائمة وكثيرًا ما يتم رفضي، والزيارة هي الوسيلة الوحيدة التي تمثل حلقة الوصل بيننا وبين الأهل، فسجن جلبوع يفتقر لوسائل الاتصال، فالأسرى هنا ما زالوا يعجزون عن تهريب وسائل الاتصال مثل سجون الجنوب والإذاعات المحلية التي نسمعها في سجن جلبوع، ومجدو للأسف الشديد تغطيتها لهذه المأساة متواضعة ولا ترقى إلى مستوى المسؤولية، هناك جهد لكنه متواضع جدًا.

نسمع عدة برامج خاصة بالتواصل مع ذوي الأسرى، لكن هذه البرامج محدودة جدًا ولا تحظى إلا بقليل من الوقت، والساعة الأسبوعية المخصصة لبرنامج الأسرى بها هامش كبير للإعلانات، وهذه ليست المظلومية الأولى، ولن تكون الأخيرة للحركة الأسيرة، التقصير الإعلامي بحق الأسرى كبير سواء على المستوى الفلسطيني أو العربي والإسلامي وكذلك الدولي، فالإنتاج العربي للملحمة الفلسطينية رغم ضخامتها واتساعها لا يحظى إلا بالقدر اليسير من الاهتمام، وإن حدث ذلك يكون أقل القليل ولا يحاكي الواقع، وأحيانًا يتعارض مع القيم والثقافة الوطنية، وقد شاهدنا في الأيام الماضية مقاطع لمسلسل عربي يتحدث عن معاناة الأسيرات، والصور التي ظهرت تعارض الرأي العام الفلسطيني وتخدش الحياء، وقد ذكرني أحد الإخوة بأن مخرجة فلسطينية أرادت إخراج فيلم يتحدث عن معاناة زوجة أسير فلسطيني، فلم تجد المخرجة المحترمة مهنة لزوجة الأسير سوى مهنة راقصة، ونسأل في هذا السياق: هل يوجد في كل فلسطين امرأة تمارس هذه المهنة؟! ومن حقنا أن نسأل عن الدافع والهدف من وراء هذا الفيلم، أم أن عقدة النقص التي نعيشها تفرض علينا أن نُظهر الفلسطيني منفتحًا حسب المعايير المطلوبة للرقي والتقدم في هذا العصر.

نحن نؤمن بحرية التعبير والرأي، وقرأنا القانون الدولي الذي يتحدث عن ذلك، وعلى من يطلب منا احترام الرأي الآخر أن يحترم ويفهم أن الحق في التعبير وإبداء الرأي مقرون باحترام الرأي العام، هكذا نصت وثائق حقوق الإنسان.

كانت عودتي إلى جلبوع قد سهلت السفر إلى المحكمة، فالمسافة بين

جلبوع ومعبار سلمون أقرب بكثير من مجدو إلى سلمون، وما أن حططت رحالي في جلبوع حتى انطلقت جلسات المحاكمة بشكل متسارع، كانت الرحلة ذاتها تتكرر في كل مرة، لكن القصص والروايات تتجدد في كل سفرية، فما من مرة أخرج بها إلا وأكتسب أصدقاء جددًا.

في إحدى جلسات المحاكمة، وبعد أن تم تقديم لائحة إتهام ضدي وعرضها على النيابة العامة، قامت الأخيرة بطلب حُكم لي حد أقصى يصل إلى 25 عامًا، تفاجأت في البداية من هذا الطلب والذي يتجاوز الحد المعقول، فقد تعرفت على أسرى تتشابه قضاياهم معي، ولم تكن النيابة قد طالبت بهذا الحجم من العقوبة، لكنني واسيت نفسي بأن قدر الله نافذ ولن يضرني إلا بما كتبه الله لي، إضافة إلى ذلك فقد أبلغني أحد الإخوة، والأصدقاء بأن طلب النيابة العامة دائمًا ما يكون بالحد الأقصى، وليس من الضروري أن يكون هذا الحكم هو الحكم النهائي، وفي المقابل سيطلب المحامي الحد الأدنى، وفي حال لم يتم الاتفاق بين النيابة والمحامي على صفقة حكم سيكون حكم القاضي بين طلب المحامي والنيابة.

بعد الجلسة التي قدمت فيها النيابة طلبها أبلغني المحامي أن ضابط السلوك الاجتماعي سيأتي لزيارتي في السجن بناء على طلبه، والزيارة مهمتها إجراء تقييم لوضعي النفسي قبل السجن وبعده، وعلى ضوء النتائج ستخفض المحكمة الحكم. هذا إجراء روتيني يتم التعاطي معه لاستكمال الوضع القانوني، ولكن في الغالب ليس له أي تأثير في الملفات الأمنية، وبعد عودتي للسجن بثلاثة أيام خرجت لمقابلة ضابط السلوك، سألت بعض الإخوة عن طبيعة المقابلة وما هو المطلوب مني وكيف أتعامل معه،

والإخوة شجعوني على المقابلة رغم قناعتهم بعدم جدواها، فلا بأس من التجارب معه والتظاهر بانهيار الوضع النفسي وأنك لست على ما يرام، وهذا لا يعني أنك تنازلت عن مبادئك وقناعاتك، وليس من الذكاء التشدد في موضع يتطلب المرونة والانحناء حتى تمر العاصفة هناك بعض الأسرى يرفض إبداء الأسف والندم أمام القاضي وتكون النتيجة زيادة في الحكم، والبعض الآخر تدفعه الحمية للهجوم على القاضي والنيابة العامة بالشتائم والسباب، وهذا لا يفيد بشيء، بل على العكس تكون النتائج وخيمة، وحدث ذلك مع العديد من الأسرى وارتفعت مدة أحكامهم لسنوات إضافية لهذه الأسباب، العزيمة مطلوبة وإظهار الإرادة الصلبة كذلك، لكن ذلك ليس مطلوبًا من كل أسير، مع ذلك واجب بحق بعض الأسرى وخصوصًا القادة منهم، والقرآن الكريم يخبرنا أن النطق بالكفر من أجل النجاة ليس كفرًا، وسيدنا عمر بن الخطاب في القصة المشهورة طلب من الصحابة الكرام جميعهم الذين عابوا الأسير الذي قبَّل رأس قائد الروم مقابل إطلاق سراحه وسراح إخوانه تقبيل رأس الصحابي، فأنا لا أرى أي سوء بالاعتذار أمام القاضي إذا كان ذلك سيؤدي لتخفيف الحكم، ومن الأفضل في هذه الحالة أن يلتزم الأسير الصمت ويترك الحديث للمحامي، فالتصلب في هذه الحالة لا يتجاوز الشكل والمظهر.

جلستُ مع ضابط السلوك، ودار بيني وبينه حديث طويل، جاء السؤال الأخير منه على النحو الذي توقعت. أراد مني إبداء أسفي لما فعلت، كنت أعلم أن التقرير سيصل للمحكمة وسيكون له تأثير على الحكم، كان جوابي بلا تردد بأنني آسف ونادم على ما فعلت، وهكذا انتهت

المقابلة، مضت عدة أيام وجاء شاويش القسم ليبلغني بأنني سأخرج غدًا إلى مشفى الرملة لإجراء فحوصات طبية. في صباح اليوم التالي جاءت البوسطة وخرجنا من السجن، كانت رحلة البوسطة مختلفة، ولأول مرة سأخرج من هذه البوسطة وهذا يعني أنني سأتعرف على وسط فلسطين؛ مدنها وقراها، سهولها وجبالها، كانت المحطة الأولى سجن سلمون ثم هبطنا إلى الجليل الأسفل لنقطع من جديد سهل مرج بن عامر ونصعد إلى سجن الجلمة، بعد ذلك غادرت البوسطة في الساعة 12:00م، وشقت طريقها إلى وادي الحمام القريب من قرية الفريديس المحاذية لشاطئ حيفا، لكننا لم نقترب من القرية؛ لأن البوسطة استمرت في الطريق الجديد والذي يسمى عابر إسرائيل، فهذا الشارع رقم 6 يبدأ من الجليل وينتهي بمدينة بئر السبع ومدينة رهط، وهو من أهم الطرق الحديثة وأضخمها والتي تم شقها حديثًا بعد اتفاق أوسلو.

يقول الأستاذ الكبير منير شفيق في أحد كتبه عن مساوئ الاعتراف بالكيان الصهيوني: «إن إسرائيل لم تستطيع اختراق القرى والمدن الفلسطينية المهدمة عام 1948م إلا بعد اتفاق أوسلو». سارت البوسطة ساعات دون توقف، كانت المدن والقرى الفلسطينية مدن المثلث منتشرة بمحاذاة الطريق، كانت محطتنا التالية سجن هداريم والذي يقع في سهل الحوارث، مضت البوسطة لتحط في سجن الرملة، لم أرَ في مدينة الرملة سوى بعض البيوت المتهالكة القريبة من السجن، منازل العرب كأنها عشوائيات كبيت داود في جنوب أفريقيا أيام نظام الفصل العنصري، ما من شيء أبلغ عن الأحياء السكانية العربية المختلفة تعبيرًا عن التمييز العنصري في إسرائيل، الداخل إلى

مدينتي اللد والرملة يرى من على شماله أحياء سكنية تحاكي بمبانيها الشاهقة وشوارعها العريضة أعرق المدن الحديثة في غرب وشمال الكرة الأرضية، هذه العمارات الشاهقة لا نراها إلا في التلفاز ولا نسمع عنها إلا في القصص الخيالية، وعلى الجانب الآخر ترى الجانب المظلم في المدينة.

إنها بعض البيوت العربية المهملة التي تفتقر إلى البنى التحتية الأساسية وتشتكي إلى المارين ظلم العابرين من المكان، السكان الأصليون في مدينة الرملة يمارس ضدهم كل أشكال التمييز العنصري في التعليم والبناء والعمل وفي كل المجالات، أحياء مهملة وبيوت شبه مهدومة لا تصلح للسكن أشبه ما تكون بمخيم لاجئين يجثم بجانب مدينة متطورة وحديثة، المفاجأة الأولى كانت أن سجن الرملة قريب جدًا من الأحياء العربية، والمساحة التي يجثم عليها المجمع العام لمصلحة السجن تأخذ جانبًا كبيرًا جدًا من المكان، لم أرَ من المدينة القديمة إلا مسجدها الشاهد على مذبحة اللد في نكبة 1948م والتي راح ضحيتها 250 شهيدًا.

عندما وصلنا إلى بوابة السجن بدأت ذات الإجراءات التي يتم اتخاذها عند مدخل كل سجن، سجن الرملة يعتبر المقر الأضخم لإدارة السجون وهو معبار لكل السجون، الذهاب والإياب إلى هذا السجن لا ينقطع أبدًا، في كل ساعة تدخل وتخرج بوسطة إلى السجون والمحاكم، في وسط المجمع يقع معبار الرملة المشهور والذي يعرفه كل أسير داخل السجون الصهيونية، وكذلك المشفى العام للسجون الذي تشرف عليه مصلحة السجون والذي يسميه الأسرى «مسلخ الرملة».

لم أرَ المشفى ولا أعرف بأي اتجاه يقع، كان بودي أن أسأل الإخوة عن ذلك، لكنَّ طولَ السفر أرهق الأسرى والكثير منهم يغط في نومه، وما هي سوى لحظات حتى حطت بنا البوسطة أمام بوابة المعبار، ولم يتأخر الحراس بإنزالنا من البوسطات، وكانت تلك سابقة كما حدثني أحد الأسرى؛ لأنهم كثيرًا ما يتأخرون ولا يبالون بحاجات الأسرى الضرورية من الذهاب إلى الحمامات وغيرها.

قبل دخولي لفت انتباهي صوت جموع الأسرى، كان الصوت يغلب على المكان وكأنه هدير بحر، فتح السجان الباب ولا أبالغ بأن المنظر الذي رأيته لم أرَ مثله من قبل سوى في بعض الأفلام التي تتحدث عن الكلاب الضالة المحتجزة داخل أقفاص من الحديد، لا يمكن تشبيه المكان بمزارع البقر ولا أقفاص الدجاج، أيعقل أن يكون هذا السجن من سجون القرن العشرين؟! لقد تذكرت على الفور كلمات نيلسون مانديلا عن أقفاص المحكمة التي رفضها أسرى المؤتمر الإفريقي وطالبوا بإزالتها؛ لأنها ليست مخصصة للبشر، قالوا أن وزيرة العدل الصهيونية وبناء على طلب أسير جاءت وزارت المكان، فأصدرت قرارًا بإغلاقه، ثم فتح بعد عدة شهور ولا أحد يعلم السبب، المكان لا يليق بالإنسان ويفتقر إلى أدنى المعايير الإنسانية والأخلاقية، ربما جاؤوا بفكرة إنشائه من العصور الوسطى ليطبقوها في القرن الـ 21، يوجد ما يقارب 13 قفصًا يتم زج الأسرى بداخلها عدة ساعات، لقد أدركت أن هذه الأقفاص تعبر عن حقيقة هؤلاء القوم، ومن باب الحقيقة العلمية لابد من التذكير بأن هذه الأقفاص يتم زج الأسرى بداخلها كافة دون تمييز، وقد سررت كثيرًا عندما علمت بأن الأسيرات في رحلة الذهاب والإياب لا يدخلن هذا المكان، لكن ما

أخذني مشهد الأشبال الذين يدخلون هذا المكان دون مراعاة لأحوالهم، إنهم أبطال الهبة الجماهيرية، الذين دافعوا عن شرف الأمة وكرامتها، لا أدري أفرح لهؤلاء الرجال الذين ألهبوا نار الحماس في قلوب الناس وقدموا أرواحهم فداءً للأقصى وفلسطين والتي نسيها وتناساها جمهور الأمة، أم أحزن عليهم وقد حرموا حياة الطفولة والسجن يهدد مستقبلهم، أعمارهم تتراوح بين 12 – 15 سنة، ووجوههم يعلوها الاصفرار من أثر السفر، لكن هاماتهم كالطود العظيم، كانوا يدفعون السجانين وصراخهم يملأ المكان كأنهم أسود، هؤلاء الفتية قاموا بالدور الذي عجزت عنه الأمة بأنظمتها وأحزابها ومؤسساتها، هناك من رفض هذا الدور؛ لأن الثمن كان كبيرًا والنتائج لا تذكر وتناسى هؤلاء قول أحد العلماء والمفكرين الإسلاميين أن المقاومة تستمر حتى لو سقط الضحايا من جانب واحد. هذه حقيقة وإن التعبير عن رفض الاحتلال ومقاومته مهما كان متواضعًا وبسيطًا مهم؛ لأنه لا يمنح هذا العدو الراحة والاستقرار وانعدام الأمن ويمنعه من التمرد، صحيح أن النتائج المادية كانت متواضعة، لكنها في الجانب المعنوي والروحي كانت عظيمة وشكلت رافعة لكل أحرار العالم.

إن هؤلاء الأطفال مكانهم الطبيعي البيت والمدرسة ومهمتهم اللعب والترفيه والتعليم بالدرجة الأولى ليكونوا قادة المستقبل، لكنهم رفضوا السكوت وأبوا إلا أن يتمردوا، فقالوا كلمتهم حتى لا تُنسى قضيتهم العادلة، لقد فرض على أطفال فلسطين هذا الدور فكانوا أهلاً له.

عندما نزل الأشبال من البوسطة ودخلوا الأقفاص تهلل الأسرى لرؤياهم ولم يبق أحد إلا وأثنى عليهم، لكن ما يُدمي القلب أنهم لا

يحظون بالرعاية والاهتمام كما يجب من قبل الأسرى ويتعرضون لكثير من المآسي داخل السجون ولا أحد يحرك ساكنًا إلا ما رحم ربي، لقد كان حظهم العاثر أنهم جاؤوا إلى السجن في مرحلة التراجع والانكسار للحركة الأسيرة، فالاهتمام بهم وبمشاكلهم واحتياجاتهم محدود ومتواضع وهم جزء من ضحايا الانقسام داخل السجون، فالتنافس على الرعاية بهم يجري بين فتح وحماس طرفي الانقسام، وللأسف نقول بكل مرارة إن أصابع إدارة السجون تلعب في هذه القضية، ويجب أن يكون موضوع الأشبال فوق كل التنظيمات؛ لأنهم أمانة في أعناق كل الأسرى، وهذا الأمر كان محط حوار وجدال جدي بيني وبين عدد من الأسرى موزعين على كل التنظيمات، والمشترك بيننا أنها قضية إنسانية في الدرجة الأولى وأخلاقية ووطنية، والمسؤولية تقع على عاتق الجميع.

لقد تشرفت بالتعرف على الأشبال وسررت بالحديث معهم لاسيما أنني وجدتهم أقوياء الإرادة وعزيمتهم أقوى من الصخر، ولم أبخل عليهم بالنصح والإرشاد حتى لا يتم استغلالهم وابتزازهم فهناك بعض الأسرى الانتهازيين ضعيفو النفس والإرادة والضمير وهم قلة.

غادرتُ المكان وقلبي مليء بالحزن والأسى على هؤلاء الأشبال، وفي اليوم التالي خرجت إلى المشفى، وتم إجراء الفحوصات اللازمة، ثم عدت إلى المعبار لأنتظر عدة ساعات حتى قدوم البوسطة للعودة إلى جلبوع، وفي طريق العودة جمعتني الأقدار مع الأخ محمود كميل (الدبعي) وهو أحد أبطال الهبة الجماهيرية الأخيرة، محمود لم يُكتب له الشهادة كما تمناها مع صديقه أحمد الذي فارق الدنيا وهو ينزف بجانبه، وحال الرصاص بينه

وبين تقديم المساعدة لأحمد، قال لي وهو يشدني إليه: أحمد استشهد وهو يوصيني بأمه وأخيه وشقيقته.

الرحلة كانت طويلة من الرملة إلى جلبوع، وهذا يعني أن الهم والمعاناة ستزداد وتشتد، لكن حديث محمود عن موت العظماء أنساني كل همومي، قال محمود وهو يقص حكاية الشهداء ودروب الحلبيين. في يوم السبت 24/ 10/ 2015م، وكان يوم عمل شاق اتصل بي صديق عزيز وأخبرني بأن شهيدًا من بلدة قباطية استشهد على حاجز الجلمة شمال مدينة جنين، حينها أصابني توتر شديد وقلق عظيم وبدأت الخواطر السيئة تداهمني، سارعت بالاتصال بصديق آخر للتأكد من صحة الخبر، فأجابني ببكاء شديد، واستمر ببكائه وزاد من توتري، فألححت عليه بالسؤال: مَنْ الشهيد؟ فقال: صديقنا وأخونا أحمد سيمو. كانت الصدمة كبيرة، تركت العمل ومن فوري توجهت إلى منزل الشهيد أحمد، وعندما رأيت جموع الناس تملأ المكان تأكدت من صحة الخبر، فجثوت على الأرض وأصابني إحساس غريب أن الحياة بعد استشهاد أحمد ليست كما كانت من قبل، عم الحزن المكان وتمنيت لو أنني مكانه حتى لا أواجه والدته وإخوانه، لا أستطيع أن أصف هذا الشعور والاحساس وأنت تعيش في قلب المأساة. أحمد كان أحب الناس وأقربهم إلى القلب، وها هو اليوم يغدو متسربلاً بدمه الطاهر الزكي، كنت أبكي أحمد وأندب حظي العاثر، ويشاركني في الحزن والأسى صديقي وشقيقي الثاني بعد أحمد سيمو، أحمد العوض، سألني أحمد العوض: أين جثمان صديقنا؟ لماذا لا يسلمون جثمانه حتى نواريه الثرى إكرامًا له؟ أجبته بأن عدونا يعاقبنا حتى بعد موتنا، إنه يخشانا حتى ونحن قتلى، لذلك

يحتجز جثامين الشهداء ومنهم أحمد ظنًا بأن سياسته هذه ستردع الفتية الذين آمنوا بربهم ويتجهزون للدفاع عن أقصاهم الأسير.

اتفقت حينها وأحمد على دفع الناس للخروج والتظاهر احتجاجًا على احتجاز الشهداء، وقد لبى الشباب النداء، فكانت المسيرات والمظاهرات تجوب البلد كل يوم وذلك بعد نهاية العام الدراسي، لم نكن ننتظم بالدوام، وكنا كل يوم نتجهز للاحتجاجات والتحضير للمسيرات، فجأة قال لي أحمد: لماذا لا نقوم نحن بتنفيذ عملية كما فعل أحمد سيمو؟ ماذا ستجدي وتنفع هذه المسيرات؟ يجب أن نفعل كما فعل أحمد حتى نثأر لدمه الطاهر، إن أعظم إجلال للشهداء أن نسير على خطاهم ونقتدي بأثرهم، هذه المسيرات الداخلية لا تجدي نفعًا ولا تشفي الغليل، وأحيانًا تكون خيارًا للاحتلال ليفرغ الناس غضبهم بالصراخ والهتاف دون أن يعرضوا جنوده للخطر، أنا لا أعيب هذا الأسلوب، لكنه ليس الأنسب في ظل احتلال يقتل النساء والأطفال العزل وينهب الأرض ويتعدى على الحقوق.

المقاومة الشعبية وسيلة وعامل مساعد، لكنها ليست الأساس، الجهاد والمقاومة المسلحة هما أهم أدوات المقاومة، فهذا عدو لا يفهم سوى لغة القوة، هكذا جثوا على أربع في غزة وخرجوا أذلاء مقهورين من هناك ومن لبنان من قبل.

لقد سحرني أحمد بخطابه وكلماته التي تلامس العقل والقلب، وكان ردي بالإيجاب بشرط أن تكون عمليتنا بعد تسليم جثمان الشهيد أحمد سيمو، لقد عقدنا العزم على محاكاة العظماء، وبقينا ننتظر حتى جاء يوم

30/ 10/ 2015م، حينها جلست بجانب أمي وهي تستمع إلى أخبار قناة معًا، والتي أُعلن من خلالها أن سلطات الاحتلال ستسلم جثمان الشهيد أحمد سيمو، لم أنتظر طويلًا وبادرت بالاتصال بالأخ الحبيب أحمد عوض كميل وأنبأته بالخبر، قلت له: اقتربت الشهادة يا غالي، وأنا في الطريق إليك كي نتجهز للقاء أحمد، لم تمضِ دقائق حتى دق هاتفي من جديد، وللوهلة الأولى ظننت أن أحمد عاود الاتصال بي واذا بصوت أمي تخبرني بخبر جديد، وهو أن شهيدًا جديدًا من قباطية استشهد على حاجز زعترة قرب بلدة حوارة جنوب نابلس، لا أدري لماذا دق قلبي وقال لي إن الشهيد قد يكون أحمد العوض لاسيما أنه لم يخبرني بمكان تواجده، من أجل ذلك عاودت الاتصال بأحمد فأجابني بصوته الحنون فاطمأن قلبي، أخبرني أن الشهيد هو قاسم سباعنة، لم تمض ساعة حتى التقيت بأحمد قرب منزل الشهيد أحمد سيمو وقد تأكدنا من صحة خبر استشهاد قاسم وتسليم جثمان الشهيد أحمد سيمو، وأن التسليم سيكون في بلدة عرابة، توجهنا إلى المكان وخرجت بلدة قباطية عن بكرة أبيها لاستقبال أحمد وبمشاركة أهالي عرابة، ثم جاء خبر آخر يقول إنه سيتم تسليم جثمان قاسم سباعنة مع أحمد وهذا ما حدث، فقد تم استلام الجثمانين ورفعنا على الأكتاف وخرجت مسيرة شارك بها آلاف المشيعين الذين جاؤوا من كل القرى لوداع الشهداء وكانت لحظات صعبة تعجز الكلمات عن وصفها، اُستقبل الشهداء بالتكبير والرصاص والهتاف وحزنت حزنًا شديدًا؛ لأن أحمد لم يملك ثمن رصاصة عوضًا عن سكينته الصغيرة، أليس الأولى أن يكون هذا السلاح وهذا الرصاص في صدر الجنود الذين استباحوا دم أحمد

وإخوانه الأطفال؟ بدل أن يستخدموه في المظاهر الكاذبة، لكن عزائي أن هذا الزمن كما قال النبي ﷺ: «سيأتِي على الناسِ سنواتٌ خدّاعاتٌ؛ يُصدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادِقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويخَوَّنُ فيها الأمينُ» (أخرجه ابن ماجة) كناية عن انقلاب المعايير، لقد تم دفن الشهداء وبعد صلاة العشاء عدت أنا وأحمد لا يعلونا الهم؛ لأننا قريبًا سنلتقي أحمد سيمو وقاسم وكل الشهداء.

لقد اتخذنا قرارًا بأن يكون اليوم التالي هو يوم تنفيذ العملية الموافق 31/ 10/ 2015م، لكن الأهل فاجئوني بقرار الذهاب لقطف ثمار الزيتون ولم أجد مناصًا من ذلك، فاتفقت مع أحمد بأن يكون موعد اللقاء الساعة 12:00م بعد أن كان الساعة 06:00 ص، وقبل موعد اللقاء جاء خبر جديد مفاده أن شهيدًا جديدًا ارتقى على حاجز الجلمة، وظننت من جديد أنه أحمد، ثم جاء خبر آخر بعد ربع ساعة مفاده أن شهيدًا جديدًا ارتقى، حاولت الاتصال به وإذا به سبقني بذلك متصلاً وقال لي: سمعت الأخبار؟ فأجبته بالإيجاب، فقال لي ظننت أنك أحد الشهداء فقلت له وأنا كذلك ظننت أنك أحدهم، فضحكنا معًا رغم الحزن والأسى، وطلبت منه التأكد من هوية الشهداء فغاب قليلًا، ثم عاد ليبلغني بالأخبار وأن الشهيد هو محمود طلال ابن 16 ربيعًا.

أجلنا الموعد من جديد بسبب التطورات الجديدة، وقلنا يجب أن نفكر بطريقة جديدة، لكي تكون النكاية بالعدو أكبر. يجب أن نتعلم ممن سبقنا أين كان الخطأ؟ وأين حدث الخلل؟ وما هو المطلوب لكي نضمن

مساحة أكبر من النجاح؟ وفي اليوم التالي التقينا بأحد الأصدقاء وأخبرنا بأنه ينوي تجهيز مقطع مصور للشهيد أحمد كميل، فأجبته: إن شاء الله سيكون المقطع التالي لي، تبسم ضاحكًا من قولي ولم يأخذ كلامي على محمل الجد، ثم ذهبت مع أحمد إلى بيت عزاء الشهداء، وفي الطريق إلى هناك اتفقنا على موعد جديد لتنفيذ العملية.

لقد بحثنا عن سلاح ناري لكي يكون وسيلتنا لذلك، لكننا لم نوفق، فالأخ الذي اتفقت معه من مخيم جنين لتوفير قطعة سلاح لم يستطع مع أنه يعلم بأن هذا السلاح يستخدم للأفراح والمناسبات العائلية من أعراس وشجارات، بقينا نتحدث حتى الساعة الواحدة ليلًا قبل الموعد المقرر وهو 05/ 11/ 2015م الموافق يوم الخميس كان موعد اللقاء الساعة 07:00 ص. عدت للمنزل لوداع الأهل بنظرات العيون حتى لا أُثير الانتباه ولا يتسرب الشك إلى قلب أحد، دخلت البيت وكان أبي بانتظاري وأخبرني أن الوزارة أعلنت عن تعطيل المدارس بضعة أيام، وعليك أن تتجهز غدًا لمساعدتي بقطف الزيتون، فالحمل ثقيل ولا أستطيع العمل وحدي، جلست قليلًا مع نفسي وقررت الاتصال بأحمد لأخبره بالأمر فأنا أقع بين نارين، لا أريد أن أفارق الدنيا وأبي بحاجة لي ولا أريد أن أخلف الوعد، اتصلت بأحمد وقلت له قد أتأخر عدة ساعات، في اليوم التالي ذهبت مع أمي وأبي وعمي والأهل إلى حقول الزيتون كنت أسير معهم بجسدي أما روحي فتحلق مع أحمد، وبالي مشغول وأفكر بما خططت له ليلًا كي ألوذ بالفرار من الأهل. وصلنا إلى أرضنا التي تقع قرب قرية الشهداء، وقلت لابن عمي: سأغيب عنكم الآن وإذا سأل الوالد عني قل له إنني ذاهب لقضاء حاجتي.

وبالفعل تواريت عن العيون وصعدت الجبل لا أعلم ماذا جرى بين الأهل بعد غيابي، ومن هناك عدت إلى البلد سيرًا على قدمي فوصلت الساعة 06:30 دخلت الدار وبدلت ملابسي وذهبت للقاء أحمد، تفاجأ لمجيئي، لم يكن يتوقع مجيئي بهذا الوقت المبكر، سألته عن الطريقة التي يجب التعامل بها مع الوصية، فأشار عليَّ بأن نترك وصايانا بين الكتب الدراسية، فهي ستكون محط اهتمام الأهل بعد استشهادنا، سألني أحمد عن محتوى وصيتي قلت له: قد لا تصدقني، ثم ألح وأصر فقلت له: طلبت بأن يدفنونني بجانبك، فقال لي: هل تصدق يا محمود أنني طلبت في وصيتي ذات الطلب، فضحكت لذلك وفرحت فرحًا شديدًا، وقلت له: القلوب عند بعضها البعض، يُحشر المرءُ مع من أحب، وبهذه الكلمات كانت خطواتنا الأولى على درب أبو السيمر (أحمد محمد كميل) وقاسم ومهند الحلبي. توجهنا إلى حاجز الجلمة. أقلتنا السيارة من قباطية إلى جنين، ثم صعدنا بأخرى إلى حاجز الجلمة، وهناك كانت حكاية الشهيد. عندما وصلنا الحاجز شك الجنود بالأمر فتجهزوا قبل أن نقترب منهم وعاجلونا بالرصاص، كانت الرصاصات الأولى قد اخترقت ساق ويد أحمد فسقط على الأرض ولم أستطع الاقتراب منه؛ لأن الجنود صنعوا حاجزًا من النار برصاصهم الحي بيني وبين أحمد، سقط أحمد مضرجًا بدمه الطاهر ليروي ثرى الوطن الجميل، حاولت الاقتراب منه عدة مرات؛ لأقدم له المساعدة وفي كل مرة يقترب الرصاص مني أكثر، استمر الجنود بإطلاق النار صوبي وصراخهم يملأ المكان، شعرت للوهلة الأولى أنهم لا يريدون قتلي، كان أحمد ينظر لي ويوصيني بأمه وأخيه خيرًا، ثم ختم حديثه الأخير بشهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ودعني أحمد وترك في عنقي أمانة ثقيلة، كان أحمد بوصيته يقول لي: لا تتحرك يا محمود فيكفي أن أكون شهيدًا اليوم، أراد أحمد أن يثأر من قتلة أبو السيمر لكن ضعف الإمكانيات حال دون ذلك، وعندما رأى أنه ارتقى وكشف أمره قبل أن يبلغ هدفه عز عليه ارتقائي دون ذلك، فحملني وصيته كي أفهم ما أراد، أصيب أحمد بساقه ويده وظل ينزف حتى استشهد، وكان بالإمكان إنقاذ حياته، لكن الجنود منعوا الاقتراب منه ومنعوني من الحركة برصاصهم المتواصل صوبي، وعندما حضر الإسعاف الفلسطيني ألقى الجنود سلسلة من الشفرات الحادة أمامها فأصابوها إصابة مباشرة عجزت بسببه عن الاستمرار في السير.

اقترب الجنود مني وهم يطلقون الرصاص وحالوا بيني وبين أحمد، كانت تلك اللحظات هي آخر اللحظات التي رأيت فيها أحمد، عندما اقتربوا مني انقضوا علي وألقوني أرضًا ومزقوا ثيابي ثم قيدوني واقتادوني إلى التحقيق، كان الأمل يراودني أن أحمد ما زال على قيد الحياة وأنه مصاب، لكن الأمل لم يستمر طويلاً فقد أخبرني المحقق أن أحمد قتل في المكان، ذلك اليوم كان من أشد الأيام وقعًا في حياتي، لن أنسى تلك اللحظات وما زال أحمد وذكراه تدق القلب كل يوم والحزن يغمرني لفراقه فهو الأخ والصديق ورفيق الدرب، وقد تعاهدنا على الشهادة معًا، لكن إرادة الله كانت غير ذلك، وما زلت أجد صعوبة في تقبل الأمر، فالحياة بلا أحمد لا طعم لها، لكن عزائي أن الله يقدر لنا الخير ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]

13

حديث أحمد طوى بُعد السفر وقرَّب المسافات وها نحن نصل إلى جلبوع، كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا، دخلتُ القسم ولم أتوقف إلا قليلًا في الساحة لمصافحة بعض الإخوة الذين جاؤوا للاطمئنان والسؤال عن أخبار السجون خصوصًا أخبار المفاوضات حول صفقة تبادل الأسرى، فهذه المسألة هي الشغل الشاغل لكثير من الأسرى، فلا أمل لهم سوى نور المقاومين الأبطال في غزة، وهو ما أضاء عتمة السجن عليهم، لم يكن في جعبتي شيء سوى بعض التحليلات والعموميات يتناقلها الأسرى في البوسطات، مضت بي الأيام والشهور واقتربتُ من إتمام السنة الأولى في

السجن ومعها اقترب موعد الحكم، وفي الشهور العابرة تعلمت الكثير من حياة الأسرى واكتشفت الكثير أيضًا، منها ما يسر ومنها ما يحزن، وأفضل ما تعلمته في السجن هو أن أمضي وقتي في الدراسة بين الكتب، من المحبذ الانتساب إلى الجامعة إن تيسرت الأمور وتهيأت الظروف، فالشعور عند تحقيق الإنجاز يولد إحساسًا بالنصر، وهذا أمر مهم في السجن، لكنني وجدت أيضًا أن المطالعة العامة والقراءة المتنوعة سلاح قوي لمواجهة السجن والسجان، ودرع واقية يحمي من السقوط والانهيار كما عبر عن ذلك المناضل الكبير نيلسون مانديلا، ويُدمي القلب أن قلة من الأسرى اليوم من يشغل وقته بذلك، وكثير من الأسرى يذهب وقته سُدى بلا فائدة ويقتله بمتابعة الأفلام والمسلسلات ولعب الشدة وغيرها. وهذه الظواهر انتشرت في مرحلة التراجع، ومن الغريب العجيب المحزن الأليم الذي اكتشفته في السجن هو وجود أسيرات أمنيات، وهذه المسألة تعبر عن تقصير كبير بحق هؤلاء الحرائر، لماذا لا نعرف عن هذه المأساة سوى القليل؟ أين الإعلام وأين المؤسسات المدنية وغيرها من هذه القضية؟ لماذا تغيب هذه القضية عن وعي الناس؟ الكل يتحمل المسؤولية ويُلام على التقصير بحقهن بما فيهم الأسرى الذين لا يتابعون شؤنهن إلا قليلًا، وها أنا قد أمضيت ما يقرب العام ولا أرى أي جهد يبذل من أجل تحسين حياتهن ومتابعة قضاياهن مع العلم أن الأخبار لا تنقطع عن سوء أحوالهن وما يعايشن من ظروف قاهرة.

هناك جهد مبذول، ولكنه لا يرقى إلى المستوى الأدنى، للأسف الشديد أن قضية الأسيرات تعبر عن عمق المأساة والحالة التي وصلنا لها،

أذكر أن هناك أسيرات قاصرات وبعضهن أمضى سنوات طويلة في السجن أمثال الأسيرة المحررة لينا الجربوني، والسجن كل يوم ينضم إليه حرائر جديدة، فإلى متى هذا الإهمال؟ يجب أن تأخذ منا هذه القضية اهتمامًا يليق بها في الإعلام والتربية والتعليم وعلى المستوى الرسمي والشعبي.

قضية الأسيرات تشبه قضية الأشبال مع تفاوت بسيط، فوجود بعض الأسيرات القديمات وصاحبات تجارب يُسهل كثيرًا على القادمات الجدد اللاتي يُمثِّلْن الآن الغالبية العظمى من الأسيرات، وفي هذه الفترة لم أتشرف بلقاء أي منهن في البوسطة ولا أتمنى أن أعيش هذه اللحظات التي أرى فيها فتاة مُكبلة اليدين والرجلين، والحمد لله أن مسيرة رحلتي إلى المحاكم لا تلتقي مع رحلة الأسيرات إلى المحاكم، وكما علمت من الأسرى وهذا ما سَرَّنا أن الأسيرات لا يعشن ذات الظروف التي يعيشها الأسرى أثناء المحاكم فلا يوجد معبار خاص بالأسيرات، وهذه مسألة في غاية الأهمية، فالأسيرة تخرج من السجن إلى المحكمة، ثم تعود بذات اليوم، وفي أغلب الأحيان يتم وضعهن داخل بوسطات خاصة أقل بؤسًا من بوسطات الأسرى، وليس معنى ذلك توفير الشروط الإنسانية بها.

الحديث عن الأسيرات ومعاناتهن كان محور حديثي مع أحد الأسرى انتهى بنقاش حاد لم نصل خلاله لتوافق، ولم يسعفنا سوى الدخول في موضوع آخر وقضية أخرى من قضايا الأسرى التي لا يختلف اثنان من الأسرى فيها وهو السلوك السيء لبعض الأسرى خلال البوسطات الذي تسبب في كثير من الأحيان في الإساءة لسمعة

الأسرى وأحيانًا الاعتداء الوحشي من قبل وحدة النحشون على الأسرى.

رأيتُ ذلك خلال إحدى البوسطات، الصراخ والسباب والتدخين أثناء البوسطة والتهكم على السجانين في بعض الأحيان وغيرها من السلوكيات المنبوذة، كلها ظواهر سلبية تجلب في كثير من الأحيان الحرج لنا أثناء البوسطة، وأحيانا تتسبب لنا بالأذى المعنوي والمادي، البعض منا يتناسى أننا أصحاب قضية وأسرى حرب، والبعض يعتبر البوسطة فرصة لتجاوز القانون والأعراف الاعتقالية، التدخين على سبيل المثال ممنوع على الأسير والسجان أثناء السفر، بعض الأسرى يصر على تهريب السجائر، في أغلب الأحيان يتم اكتشاف السجائر المُهربة وفي حال نجاحهم بتهريبها يقومون بإشعالها أثناء سير البوسطة، وهذا ما يزيد من معاناة الأسرى فوق معاناتهم ويتعرضون للتوبيخ والتهديد من قبل السجانين ويُعرضهم ذلك للحرج الشديد، وهذا مثال بسيط لما يجري أثناء البوسطات، من حسن حظي أن مقر محكمتي في الناصرة لذلك لا أمر بمحطات كثيرة سوى معبار سلمون والذي لا يدخله إلا القليل خصوصًا أسرى 1948م، وللإنصاف إن هؤلاء الإخوة يمتازون بحُسن الخُلق والدرجة العالية من الالتزام وقليل منهم من يتجاوز الأعراف، وهذا يقودني للحديث عن الجانب المشرق للحركة الأسيرة، فرغم حالة التراجع يبقى الأسرى متربعين على القمة، فخيرة الناس من يحرق نفسه من أجل الآخرين.

ولا أحد يمثل الشمعة التي تحترق حتى تضيء العتمة مثل الأسرى، في الحركة الأسيرة مثقفون كبار وخريجو جامعات وأساتذة تخرجوا من غُرف السجن والمسيرة التعليمية رغم تعثرها تمضي قدمًا، الروابط

الاجتماعية بين الأسرى متينة ومبنية على الحب والوئام ويعيش الأسرى في الغالب الأعم حياة تخلو من التقاطع والتنافر، والأهم من ذلك أن الحوار لا ينقطع حول أسباب التراجع، وهناك مبشرات كثيرة تُنبئ بتوافق القوى الكبرى على مشروع نهضة من جديد ليعيد للحركة الأسيرة دورها ويسترد ما أُخذ منها بالقوة، وهناك تخوفات من إدارة السجون حول هذا التوجه.

يمضي هؤلاء بخوفهم، وأنا أمضي بقلقي للقادم، فالمحكمة قريبة وستكون الجلسة الأخيرة للنطق بالحكم وأنا أنتظرها على أحر من الجمر، فالأسير الموقوف يبقى مشغول البال حتى ينتهي من المحاكمة، وهذه حالة طبيعية يمر بها الأسير، فعندما تتم محاكمته يشعر بالاستقرار أكثر بِغَضِّ النظر عن قبوله أو رفضه للحكم. كانت المحاكمة الأخيرة التي مضى على تاريخها أكثر من شهر جلسة لاستماع أقوالي عن العملية، وكيف تمت، لذلك كانت من أطول الجلسات التي حضرتها، وها أنا مرة أخرى أقرأ الرواية، قلت للقاضي: لم أتوقف يوم اعتقالي عن تجوالي داخل مدينة العفولة، كنت أبحث عن هدفي والشعور الداخلي يزداد اضطرابًا خوفًا من أن يتم اكتشافي، فعمليات الطعن والدهس لم تتوقف، وكانت الهبة أو الانتفاضة في أوجها، كانت حافلة الاستشهاديين تمضي قدمًا نحو القدس دون توقف. من الشهداء من يصعد عبر بوابة القدس ومنهم عبر بوابة الضفة، ومنهم من يصعد عبر البوابة الجنوبية في بئر السبع، وها أنا أحاول الصعود عبر بوابة العفولة، فمن هنا صعدت الاستشهادية هبة دراغمة إلى بوابة السماء، ومن هنا صعد أبو ناعسة وكميل وزكارنة وحماد وكوكبة من الشهداء العظماء، كانت بوابة

العفولة بوابة إلى العلياء وأنا أشرئب للصعود عبرها كما عبر العابرون.

كانت خطواتي داخل المدينة خطوات الواثق. مضت ساعات على وجودي داخل وكر الثعلب دون هلع ودون جبن وبلا ارتباك وتردد، كانت السكينة تغشاني وكأنني أسيرُ في بلدي ووطني وهؤلاء ليسوا أكثر من سرب جراد حط بأرضي وحتمًا سيمضي، رائحة الشهداء ما زالت تملأ الأجواء وكأنَّ عبد الكريم ونظير ارتقوا اليوم. فجأة وقع نظري على جندي من بعيد فانقطع حبل أفكاري وسكنت خواطري وقلت في نفسي جاء الذليل الذي سأدوس عليه؛ لأصعد على عتبة الجنة وألتقي بمحمدﷺ وصحبه. أسرعت بالمضي نحوه حتى أدركته، اقتربت منه حتى شعرت بأنفاسه الحارة، كان يسير أمامي وأنا أمضي خلفه وعزمت على ما عقدت العزم عليه بأن أمضي إلى ربي معتذرًا عن أمتي التي تغفو في سبات عميق، لم يتسرب إلى قلبي خوف، أيقنت أن الساعة حانت وأن الرحيل قد آن، فجهزت سلاحي وشحذت سكيني، كانت يدي اليمنى تشد على مقبض السكين واليد الأخرى قربت على كتف الجندي من الخلف لتنبهه أن مطالبًا حثيثًا يسير من الخلف إن هربت منه أدركك وإن انتظرته أخذك، إنه الموت القادم من بعيد، كانت حركتي هذه كي يلتفت نحوي، لم أُحبذ طعنه من الخلف رغم أنه لا خلف للعدو على هذه الأرض، لكنني أحببت أن ألقاه وجهًا لوجه؛ ليعلم بأنني ابن الأرض وعلاجها الذي يصلحها وأنه الخنزير الذي يدمرها، التفت نحوي وكانت سكينتي أسرع إليه، قبل أن ينهي سؤاله طعنته في بطنه، فهوى صريعًا، ثم حاول مقاومتي فأعدت الكرة عليه من جديد مُتابعًا ضرباتي، بدأ بالصراخ وكانت صرخاته مثل

صفارات الإنذار، فالتفت المارة لما يجري وانقضوا علي دون تردد، لم يبقَ أحد في الشوارع إلا وقد تقدم نحوي وهاجمني، فكانت الضربات تأتي من كل مكان، ومنهم من ألقى عليَ الحجارة، تصرف الجميع كما يتصرف الجنود أثناء المعركة، إنهم جنود بلباس مدني، من يدعي أن هذا المجتمع فيه عساكر ومدنيون فهو مُخطئ، شعرت أن سكان المدينة جميعًا قد انقضوا علي، لقد كانت اللكمات قوية والضربات عنيفة والوحشية أقسى من وحشية الغابة، فشعرت أن ساعتي قد اقتربت فسلمت نفسي وانتظرت دون مقاومة وبدأ يراودني شعور بالسعادة والفرح، قلت في نفسي ما هي إلا لحظات حتى أرى الأحباب ابن خالي شهيد لقمة العيش والفتى الذي هزّ الشرق الأوسط سامر حماد، مهند الأسطورة. انتظرت ثم انتظرت وأنا أتلقى اللكمات دون أن تأتي الرصاصة التي ستمنحني وسام الشهادة، ازداد الصراخ من حولي والشتائم تنهال عليّ من كل حدب وصوب يرافقها سيل من الضربات. وكان أشدها محاولة خلع كتفي أثناء ثني يدي خلف ظهري، ازداد الألم وازداد التفاؤل بأن أنال مرادي، لكن إرادة الله كانت غير ذلك، فجأة سمعت أصوات مزامير سيارات الشرطة تقترب من المكان، وما هي إلا لحظات حتى وصل الفوج الأول من القوات فقاموا بإبعاد الناس عني ثم شدو وثاقي وقيدوني من الخلف لتبقى يدي على حالها.

لقد أحكموا القيود ولم يتركوا لي مجالًا للحركة، كان الألم يزداد ويزداد، ثم بدأت بالصراخ من شدة الألم، لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا، وضعوني في الصندوق الخلفي لسيارة الشرطة دون شفقة ولا رحمة.

انطلقت السيارة نحو مركز شرطة المدينة، وهناك جردوني من ملابسي وأنا مقيد اليدين والرجلين وملقى على الأرض التف حولي عدد كبير من قوات الشرطة وحرس الحدود، ثم تقدم أحد الضباط نحوي وبدأ يحقق معي، كان التحقيق يدور حول هوية السائق الذي أقلني إلى مركز المدينة، كانت إجابتي أنني وصلت إلى المدينة على متن حافلة عامة وليس سيارة خصوصية، حينها رد عليّ الشرطي قائلًا: أنت تنكر أنك جئت بسيارة خاصة، ولا تعلم أن المدينة مليئة بالكاميرات، نحن نعرف السيارة التي أقلتك، ولن تمضي ساعات حتى نعرف هوية السائق.

حديثه أصابني بحيرة شديدة وفكرت قليلًا، قلت في نفسي إنهم سيعرفون هوية السائق قريبًا وقد يكون إنكاري لهوية السائق ضارًا به لاسيما أنه لا يعلم ما أنوي القيام به وأخبرته عبر الهاتف أنني أنوي الذهاب للعفولة للحصول على دين لي مع أحد أرباب العمل من الناصرة والمكالمة مسجلة والهاتف بين أيديهم، فقررت إخبار الضابط باسم السائق وأنه لا يعلم وجهتي ونص المحادثة التي جرت بيني وبين السائق موجودة على هاتفي الذي بين أيديكم، وبفضل الله تأكدت الشرطة أن لا صلة له بي، وأنه لم يكن إلا مجرد سائق فقط وعاد يمارس عمله كما كان، وقد حصلت على هذه المعلومات من المحامي الخاص بي.

بدأت حالتي تتردى والألم ازداد شدة، وقد لاحظ أفراد الشرطة ذلك فاستدعوا سيارة الإسعاف. وما لم أتوقعه أن القيود بقيت بيدي على حالها، وبعد أن تم وضعي داخل الإسعاف صرخت كثيرًا دون انقطاع، لكن صراخي لم يحرك ساكنًا بالمسعفين الذين ينقلونني برفقة الشرطة، قال

الشرطي: إننا لا نملك صلاحيات لفك قيودك، كانت الطريق إلى المشفى أطول من النكبة.

نصف ساعة داخل المدينة كانت تعادل نصف سنة، لم أصدق عندما أخبرني الشرطي أننا دخلنا إلى المشفى، وما هي إلا لحظات حتى وصلت النقالة وتم وضعي عليها. أدخلوني إلى غرفة الفحوصات، وهناك أخيرًا تم فك قيودي وشعرت براحة شديدة لم أشعر بها من قبل، قام الطبيب بفحصي بشكل كامل وتأكد من عدم وجود كسر في كتفي ويدي وحمدت الله على ذلك، أُصبت ببعض الجروح البسيطة، ولم تكن خطيرة وأخبرني الطبيب أن وضعي الصحي جيد.

فجأة تقدم أحد الضباط الدروز وعرفته من لهجته وحاول الهجوم علي وضربني داخل المشفى، وأمام عيون الشرطة دون مراعاة لخصوصية المكان، إن القيم التي يدّعون الالتزام بها تسقط عند الامتحان الأول، إن اللاإنسانية التي شاهدتها في مشفاهم هي ذاتها التي نراها عبر شاشات التلفاز، فالذي يرفض أن يجري في عروقه دم رجل أسود؛ لأنه أبيض هو ذاته الذي يرفض أن يتعاطى مع أنين أسير يعاني من شدة القيد.

أمضيت أكثر من ساعة، في تلك الأثناء جاء ضابط الشرطة نحوي وهاتفي يرن بين يديه فسألني عن المتصل؟ فعرفت أنه أخي فادي، أجبته بأنه أخي ولم أعطِ الموضوع أي اهتمام، قلت في نفسي أمر طبيعي فهذا أخ يتصل بأخيه؛ ليطمئن على غيابه، لكنهم لا يفكرون بالطريقة هذه، وقد علمت فيما بعد أن أخي تم استدعاؤه للتحقيق في معسكر سالم، وهناك

اعتدوا عليه بالضرب المبرح وأُصيب برضوض في جسده وأفرجوا عنه بعد عدة ساعات بعد أن تأكدوا أنه لا صلة له بما جرى.

خرجت من المشفى، وكان بانتظاري على البوابة عدد من الصحفيين، حينها تذكرت أحد القراصنة في مجال المعلومات الذي اقتحم مقر الاستخبارات الأمريكية، وكانت المخابرات قد بذلت جهودًا جبارة للإمساك به، لكنه فرّ من البلاد، وفي الخارج وفي أول مقابلة صحفية له ابتسم أمام الصحافة، كانت ابتسامته رسالة للاستخبارات التي فشلت في الإمساك به.

أردت أن أفعل كما فعل وأن تكون رسالتي لعدوي الابتسامة، فابتسمت للكاميرا ليعلم عدوي أنه لم يهزمني ولم يُثنني عن المضي وإكمال المشوار.

توجهت سيارة الشرطة بي إلى مركز التحقيق في الجلمة قضاء حيفا قرب جبل الكرمل، ولم أكن أعرف المكان وإلى أين الوجهة، لم تكن لي تجربة من قبل، لم أتعلم شيئًا عن وسائل وطرق التحقيق، كانت معلوماتي شحيحة، كان جسدي عاريًا داخل غرفة الانتظار، وكان عقلي عاريًا من أي معلومة عن التحقيق، كيف ذلك ونحن نعاني من السجن والاحتلال منذ أكثر من 70 عامًا؟ من يتحمل مسؤولية ذلك؟ مضى على وجودي داخل الأمتناه أكثر من ساعتين لا يصحبني في الغرفة سوى بقايا من بنطالي الذي تم تمزيقه أثناء اعتقالي، راودتني أفكار وخواطر كثيرة عن الأهل ومصير بيتنا، فقد أخبروني في الساعات الماضية أنه تم هدمه، كان ذلك كله لتثبيط

عزيمتي وقهر نفسيتي وإرباكي، ثم شرد ذهني إلى السائق، هل قمت بالصواب نحوه أم لا؟ ثم فكرت بالجندي الذي طعنته، وما هو مصيره هل قُتل أم لا؟ وما هو المصير الذي ينتظرني؟ وماذا بعد الآن؟ قاطعني السجان وقال لي: هيا! واقتادني إلى غرفة صغيرة، وهناك سلمني ملابس السجن بعد أن تم تفتيشي بدقة، بعدها اقتادوني إلى غرفة التحقيق بعد أن أَغمض عيني.

دخلت الغرفة غادرها السجان وإذا بشخص يقترب مني، ثم قام بنزع قناع العين وأجلسني على الكرسي، قال لي: يبدو أنك تعاني من الارهاق الشديد وبحاجة للراحة، لذلك اذهب استرح وغدًا نتحدث، اقتادني السجان إلى الزنزانة، وكانت أشبه ما تكون بالقبر، تفاجأت كثيرًا من حجمها وضيقها الشديد ومستوى الإنارة ذي اللون الأحمر الذي يعمي العيون.

كان بداخلها بطانية وفرشة ومرحاض صغير، استلقيت على الفرشة ومن شدة التعب والألم لم أصحُ إلا على صوت السجان وهو يفتح الباب وبيده وجبة الإفطار، كانت مكونة من 5 قطع خبز وعلبة صغيرة من اللبن وأخرى مربى.

تناولت إفطاري، ثم أخلدت إلى النوم من جديد لأصحو بعدها من جديد على صوت السجان وهو ينادي للذهاب إلى غرفة التحقيق. بدأت الجولة الأولى وكانت بغاية اللطف والرقة، كان السؤال الأول عن حالي ووضعي النفسي فأجبته بالإيجاب، ثم بدأ ينهال عليّ بوابل كثيف

مـن الأسـئلة: مـا الهـدف مـن تنفيـذ العمليـة؟ ومـا الدافـع والمؤثـرات؟ هـل تنتمـي إلى تنظيـم؟ مـن سـاعدك ومـن قـدم لـك العـون؟ كيـف دخلـت إلى العفولـة، لقـد كان خبـيرًا في طـرح الأسـئلة ولم يـترك لا شـاردة ولا واردة إلا وسـأل عنهـا، دقيـق الملاحظـة واسـع المعرفـة يبحـث عـن التفاصيـل الصغـيرة، لقـد كان يرقبني بـكل جوارحـه، أخجلني كثيرًا بلطفـه ومعاملته الحسـنة، كان يقنعني بأنـه صديـق حتـى أفـضي لـه بـكل مـا بداخـلي.

كنـت أشـعر بالراحـة وأنـا أجلـس عـلى الكـرسي داخـل مكتـب التحقيـق. الشـعور الـذي تملكنـي داخـل غرفـة التحقيـق لم يكـن شـعور الرجـل الـذي أصابتـه مصيبـة، لقـد تـم صناعـة الجـو في مختـبر نفسـي لأعيـش هـذه الحالـة النفسـية بـين يـدي المحقـق، لم أدرك هـذه الحقيقـة إلا بعـد حـين، فهـؤلاء القـوم يبذلـون جهـدًا كبـيرًا مـن أجـل هـدف يسـعون لتحقيقـه، الرجـل المناسـب في المـكان المناسـب والحكمـة هـي وسـيلة التعامـل، لقـد كان يـمارس دورًا وُكِّلَ إليـه، الظهـور بمظهـر الإنسـان الوديـع يهيـئ الأجـواء لراحـة البـال لـدى الضحيـة، لم يبخـل عـليّ بالسـجائر ولا بشيء مـا، كـي أتقـدم أكثـر نحـوه وتـزداد ثقتـي بـه، إنـه يريـد أن يكـسر الحاجـز النفـسي بينـه وبينـي ويهـدم سـور العـداء القائـم منـذ 70 عامًـا ليتحـول إلى صديـق لحظـة مـن الزمـن يريدهـا مـن أجـل أن أفـضي لـه مـا بجعبتـي مـن معلومـات.

لقـد كان ماهـرًا جـدًا وكل كلمـة يقولهـا وكل حركـة منه كانـت عن معرفة ودليـل تنطلـق، إنـه يعلـم أن شربـة المـاء أو وجبـة الفاكهـة إن قبلتهـا منـه سـتزيدني قربًـا منـه وسـتهدم جـدار العـداء بيننـا، فكـما يقـول المثـل العامـي عندنـا: «اطعـم الفـم تسـتحِ العـين». تذكـرت قـول أحـد العلـماء وهـو يحـذر مـن خطايـا الظالمـين

لما لهم من أثر في النفس: «اللهم لا تجعل ظالمًا يحسن إلينا؛ لأن النفس جبلت على محبة من أحسن إليها»، فعرفت المقصد من هذه المعاملة الحسنة وهذا الجو اللطيف وهذا الوقار الذي يظهر على وجه الجلاد المجرم.

لا ينبغي للأسير أن يطلب من المحقق أي شيء مثل السجائر أو كوب من القهوة أو كأس من الماء؛ لأنها تولد الشعور بالإحسان، والإحسان جزاء الإحسان، إن المحقق هو خبير نفسي واجتماعي ومختص بعلم النفس ويعرفنا جيدًا، يعرف عاداتنا وتقاليدنا، فعندما يتكلم ينتقي الكلمات انتقاء، لقد تعلم لغتنا حتى أمن مكرنا، فمن تعلم لغة قوم أمن مكرهم.

ربما يشعر القارئ بأنني أصنع للمحقق شخصية خيالية يعجز المرء عن مواجهتها وهذا سوء فهم، وإنما أقول ذلك ليتجنبه الغافلون الذين لا يتسلحون بالعلم والمعرفة، وسر نجاح المحقق يكمن بجهلنا وقلة وعينا وعدم إدراكنا، إننا بحاجة للمعرفة ليتلاشى خطر الاعتراف وأنا لم أعرف ذلك إلا بعد التجربة والدراسة في السجن، لقد التقيت بكثير من الأسرى مصائبهم تكمن في غياب الوعي وعجز في الجانب المعرفي.

خلال الأيام الأولى تم وضعي في قسم معزول في الطابق الأرضي وبعد انتهاء التحقيق تم وضعي في القسم الأعلى ولم أدرك السر في ذلك إلا بعد حين، فصاحب التجربة الجديد ممنوع وضعه بقرب أسير له تجربة سابقة حتى لا ينبهه من غرف العصافير ولا يقدم له النصائح عن طرق المحققين باستخراج المعلومة من الأسير.

إننا لسنا بحاجة إلى جهد كبير حتى نتجنب السقوط في وحل الاعتراف وإنما إلى قليل من الذكاء والمعرفة حتى نخرج منتصرين. مطلوب من الأسير أن يكون أكثر غموضًا وشديد الملاحظة لكل ما يدور حوله وأن ينتبه لكل كلمة وتصرف يصدر عنه، وألا يظهر نقاط ضعفه أثناء التحقيق وأن يتذكر دائماً أنه أمام عدو يتربص به.

الأسلوب اللين من قبل المحقق خطير ويجب التنبه إليه، وأسلوب العنف خطير كذلك؛ لأنه يعتمد على التخويف والرعب ليس إلا، فالعنف المستخدم داخل التحقيق مقدور عليه ويمكن تحمله وتجاوزه، وكثير من الأسرى يرتاحون لهذا الأسلوب؛ لأنه يولد التحدي داخل النفس ويقوي الإرادة، والمحققون يدركون ذلك ومن أجل ذلك لا يلجؤون إليه إلا قليلًا.

أثناء التحقيق معي سمعت بالغرف الأخرى أصوات الصراخ والضرب، وكل ذلك تمثيل ويستخدم لإرهاب الأسرى كي تنهار نفسيتهم وعلى الأسير أن يدرك ذلك ولا تنطلي عليه الخدعة.

لقد التقيت بمئات الأسرى واطلعت على تجارب الكثير منهم، مورست تجاههم كل أنواع وأشكال التحقيق وما من أسير إلا ويندم على اعترافه ولا يُعزى ذلك إلا لغياب التجربة، منهم من تم التحقيق معهم تحقيقًا عسكريًا، وهنا لابد من الإشارة إلى مسألة مهمة وهي دلالات هذه الكلمة، فكثيرًا ما يتم استخدامها من قبل المحققين لاستنطاق الأسرى، فالكلمة توحي بالعنف والقوة والبطش والتنكيل وتهدف لإلقاء الرعب في قلب الأسير كي تدفعه نحو الاعتراف، وكثيرًا ما يحدث ذلك، وفي الحقيقة

أن هذه الكلمة تستخدم فقط لغاية واحدة وهي إرهاب الأسير وتستخدم كثيرًا داخل الزنازين من قبل الجواسيس كي يلقوا الرعب في قلوب الأسرى، وكثير منهم من يؤلف قصصًا وروايات عن الوحشية والضرب والكهرباء، وكل ذلك عارٍ عن الصحة والهدف منه معروف، وكل من تم التحقيق معه بهذا الأسلوب خلال عشرات السنين يقول إن التحقيق العسكري يمكن تجاوزه وتحمله ويعتمد فقط على قوة النفس، والمحققون يراهنون على قلة صبر الأسير فقط. صديقي أحمد أمضى سنوات طويلة في السجن ومحكوم 4 سنوات وهذه التجربة الخامسة له. حدثني أنه عايش كل التجارب وموروس ضده كل أنواع وأساليب التحقيق، قال إن هذا الأمر يتوقف على الأسير ذاته هل يصبر أم لا؟

المحقق يراهن على هذا العامل المهم، وللأسف أغلب الأسرى ينفد صبرهم ويتعجلون، المشكلة في نفاد الصبر، ليس لأن العنف قاسٍ أو الضغط المادي كبيرٌ وإنما الضغط النفسي المرافق لمرحلة التحقيق هو العامل الأخطر والذي يعتمد عليه المحقق بشكل كبير، المخابرات عبر الجواسيس تركز كثيرًا على عامل الزمن وتحوله إلى هم ومطلب كبير للأسير أثناء التحقيق، فكثيرًا ما يتحدث الأسرى عن الزمن والخروج من السجن متى سيكون، فيتحول هذا الهاجس إلى عامل ضاغط على الأسير، وكثيرًا ما يكون من أهم أسباب الاعتراف؛ لأنه يريد الخلاص، فالمطلوب الصبر؛ لأن النصر صبر ساعة، وصبر ساعة ولا ندامة كل ساعة، هكذا قال أحمد، لا يوجد ما يخيف في التحقيق، بل الخوف في الحقيقة يتملكهم هُم، ولكننا نجهل ذلك.

هنـاك فئـة كبـيرة مـن الأسرى تعـترف تحـت التهديـد ليـس أكثـر، بعضهـم يعـترف مـن صراخ المحققـين، والبعـض الآخـر مـن التهديـد باعتقـال الأهـل وآخـرون أثنـاء الاعتقـال داخـل الجيـب العسـكري خوفًـا ورعبًـا، وكثير مـن الأسرى اعـترف تحـت التهديـد بتحويلـه للتحقيـق العسـكري، وآخـرون بإطالـة المـدة الزمنيـة والبعـض بالحرمـان مـن النـوم والتدخـين، وقـد وجدنـا مـن يعـترف مجانًـا ليُسـجل مـن الخالديـن ويحلـو ذكـره بـين العالمـين، وهنـاك أسرى يعترفـون خوفًـا مـن اتهامهـم بالتجسـس والخيانـة؛ ليثبـت للنـاس أنـه غـير مـا يظـن بـه البعـض، وللأسـف الشـديد أننـا مـا زلنـا نعجـز عـن محاربـة هـذه الظاهـرة وتقديـم العـلاج المناسـب لهـا والـذي يدركـه الجميـع، وهـو رفـع مسـتوى وعـي النـاس بظـروف هـذه المرحلـة مـن حيـاة الأسـير.

14

استمرت جولة التحقيق الأولى ثلاث ساعات دون توقف، وبعدها تم إعادتي إلى الزنزانة، لفت انتباهي عدم لقائي بأي أسير أثناء الخروج والعودة من التحقيق، وكان السجان قبل أن يخرجني يتحدث مع سجان آخر بكلمات لم أفهمها، وعلمت فيما بعد أنها خلو المكان من أي عصفور (جاسوس). دخلت للزنزانة ولم يكن خيار أمامي سوى النوم، فالنوم كان الملاذ الذي ألوذ به هربًا من خواطري، فقد أصابني حزن شديد؛ لأن الأمنيات كانت مجرد أحلام ولم تتحول إلى حقيقة، كاد أن يتسرب اليأس إلى قلبي، ولكني تجاسرت على نفسي وقلت إن قدر الله نافذ، والخيرة فيما اختاره الله.

كانت الأيام الأولى لي في التحقيق تمضي بين جلسات التحقيق والنوم، ولم أرَ سوى السجانين والمحققين خلالها، وفي اليوم الثالث جاء السجان وأخبرني بأن أتجهز للذهاب إلى المحكمة، وما هي إلا لحظات حتى خرجت من الزنزانة، وتم اقتيادي إلى خارج المقر، وكانت سيارة مدنية بانتظاري، وبعد إجراءات التفتيش قام المرافقون لي بتكبيل يدي وقدمي.

أدخلوني إلى السيارة دون وضع عصبة على عيني، ومن حسن حظي أن السيارة لم تكن تتبع لإدارة السجون وإنما كانت مدنية تخص الشاباك، فالسيارات التابعة لمصلحة السجون تحجب الرؤية عن الأسير، لقد كان الجو ماطرًا وأول ما لفت نظري جبل الكرمل، فهذه المرة الأولى التي أراه فيها، لقد كان شامخًا تعلوه الخضرة عاليًا يداني السحاب وحينها أدركت لماذا يُشَبَّه شموخ الأبطال بالكرمل، في الكرمل تتراكم الذكريات ويظهر التاريخ على صفحاته ويقرأ المسافر اسم القسام وأبو إبراهيم الكبير.

من ينظر لجبل الكرمل يرَ الحزن لما أصابه من جروح، فالمستوطنات والغرباء يبدون كالندوب والجروح الدامية التي تشوه الجسد وتؤذي الروح مضت بنا السيارة مسرعة تشق الجبال والسهول والوديان، وما هي إلا دقائق حتى وصلنا شواطئ الناصرة، ثم دخلنا مقر المحكمة، لم أكن أعرف شيئًا عن هذا العالم، وهناك اقترب مني أحد الأشخاص وقال لي: إنه المحامي الموكل بقضيتي، اطمأن على وضعي الصحي، ثم طلب رقم هاتف والدي وسرني ذلك ولم أتردد، وقلت له: طمئن الأهل والوالد عني وأنني بخير ولا أعاني من أي إصابة!

كانت جلسة المحاكمة هي الأولى لي والتجربة الأولى كذلك، استمرت مدة دقيقتين فقط، صدر من القاضي قرار بتمديد توقيفي لمواصلة التحقيق بناء على طلب النيابة العامة.

في طريق العودة كانت المناظر الطبيعية أكثر إشراقًا وجمالًا. مررت ببعض القرى والمدن العربية ولا أعرف مسمياتها؛ لأنني لم أزرها من قبل. بعد دخولي إلى الزنزانة طلب مني السجان تجهيز أغراضي تمهيدًا لنقلي إلى زنزانة أخرى، الأمر الذي أفرحني؛ لأن في ذلك إشارة لنهاية التحقيق والأسير ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.

عزل الأسير داخل الزنازين دون الاحتكاك بالآخرين أسلوب من أساليب الضغط النفسي وكثيرًا ما تعطي ثمارها مع أصحاب النفوس الضعيفة، على الأسير أن لا يُبدي أي نقطة ضعف، وقد حدثني أحد الإخوة أن المحقق المختص بالأسير ـ لكل أسير محقق خاص به يتابع ملفه ـ يستخدم وسائل كثيرة للضغط على الأسير واستغلال نقاط الضعف والتي يتم معرفتها من خلال الجواسيس وما يبدو للمحقق أثناء متابعته للحالة التي يتابعها، فبعض الأسرى يظهر استياءه من الوحدة فيتم الضغط عليه باستمرار عزله عن بقية الأسرى، وآخرون يظهرون داخل الزنازين تعلقهم الشديد واللامعقول بالأهل والزوجة والابن فيتم الضغط عليه باعتقالهم.

قد أعجبتني تجربة فريدة لأحد الإخوة أثناء التحقيق، وكيف احتال على المحققين وفرض عليهم إغلاق الموسيقى المزعجة، وهذه الأخيرة من

ضمن الوسائل التي يتم استخدامها للضغط على الأسرى، فما كان من هذا الأخ عجيب جدًا، فقد أظهر للمحققين بطريقة غير مباشرة أنه يطرب للموسيقى والغناء أثناء الشبح المتواصل، وكان كلما توقفت الموسيقى للحظة يبدأ بالصراخ لإعادة تشغيل الموسيقى، ويرافق ذلك رقص وغناء على كرسي الشبح، وبعد أن تأكد المحقق وهو يتابعنا أننا نطرب للموسيقى قام بإقفال جهاز الموسيقى.

في الجهة المقابلة حدثني صديقي أحمد عن أسير آخر تم اعتقاله على جسر الملك حسين. لم يكُن له أي تجربة سابقة في التحقيق، ولا يملك أي معلومة عما يجري بعد الاعتقال، وأثناء التحقيق ظهر للمحققين نقطة ضعف في شخصيته عندما قام أحد الضباط بشتم والدته والإساءة بالكلمات البذيئة لإخوته، ولم يكن سمع مثل هذه الألفاظ البذيئة من قبل، وبعد أن عاد إلى زنزانته وكان يشاركه في سكنه عصفور شكا له ذلك وبكى بكاء شديد، وفي اليوم التالي قدم العصفور تقريرًا عن وضعه النفسي وما أصابه من الشتائم التي سمعها من المحقق. جاء السجان وأخرجه من الزنزانة وصعد به إلى غرفة التحقيق، تفاجأ بأن طاقم التحقيق في الجلمة بأكمله ينتظره داخل الغرفة، وبعد أن أجلسوه على الكرسي مُقيد اليدين والرجلين انهالوا عليه بوابل من الشتائم واستمروا على هذا الحال مدة ليست بسيطة؛ لذلك على الأسير أن لا يبدي أي ضعف أثناء التحقيق حتى لا يتم استغلاله وإصابة معنوياته بجروح بليغة كي يعترف اعترافًا لهم، وفيما لو حدث ذلك أن يصبر ولا يبالي؛ لأن الثمن كبيرٌ، وقد يكلف سنوات طويلة في السجن كما حدث مع الكثير.

الغريب في الأمر أن الأساليب المستخدمة سواء كانت النفسية أو المادية تهيء الأجواء كي يشعر الأسير أن معضلته الحقيقية ليست السجن وإنما تجاوز فترة التحقيق بسرعة وهذا خطر كبير، فهناك من الأسرى من لا يبالون بالاعتراف ليخرجوا من التحقيق ويصبحوا ضحية للمحقق؛ لذلك كان سروري أمام السجان خطأ ونقطة ضعف؛ لأن ذلك يقدم لهم معلومة مجانية عن ابتكار وسائل جديدة للضغط على الأسرى.

يجب أن يكون الأسير أثناء التحقيق وبعده كتومًا وغامضًا وقليل الكلام قليل الضجر والشكوى، لا يسأل إلا بحذر، وهذه الفئة من الناس لا تحبذها أجهزة المخابرات، فبعض الأسرى أمضى 20 عامًا دون أن يتوجه لهم ضابط مخابرات ولو لمرة واحدة بطلب التعاون معهم، وما ذلك إلا لأنهم يعلمون أنهم صخور لا تلين ويصفونهم بكلمات «روش كشي، رأسه قاسي، روش برزيل، رأس من حديد، روش إيڤن، رأسه حجر». وكثير من الأسرى لا ينقطعون ويتواصلون بالعرض عليهم حتى يتعاونوا معهم؛ لأنهم يعرفونهم جيدًا من خلال التقارير المتواصلة التي تتحدث عن حيلهم واستخفافهم بالقيم والأعراف وضعف المعنويات والتذمر الدائم من السجن والضجر المتواصل دون انقطاع.

15

قادني السجان إلى زنزانة جديدة بداخلها عدد من أسرّة الإسمنت لم تختلف عن سابقتها ذات المواصفات الرديئة، الجدران خشنة والرائحة نتنة، إنها تصنع جوًا من الكآبة الدائمة وتولد في النفس حالة من اليأس والقنوط، ولا يستطيع المرء أن يستلقي في ظلامها إلا إذا كان صلبَ الإرادة مؤمنًا بعدالة قضيته مصحوبًا بالذكر والدعاء.

حاولتُ النوم لكنني لم أستطع لأنني شعرت بتشبع النوم، فخلال الـ48 ساعة التي مضت كان أغلبها النوم، بدأت بقراءة ما أحفظ من

القرآن، ثم تحولت إلى الذكر، ثم إلى الأناشيد، ولم يقطعني سوى صوت الأقفال وهي تقرع الباب إيذانًا بفتحها.

ما هي إلا لحظة حتى ظهر السجان، طلب مني الخروج من الزنزانة إلى التحقيق، فغرف التحقيق تقع في الطابق العلوي ويحوي بعض الزنازين الخاصة، وهي الأسوأ في المكان المخصصة لأصحاب الرؤوس (الكشي، البرزيل، **والإيڤن**)، وكم تمنيت أن أكون منهم، لكنني أُعتقلت متلبسًا فلا حاجة للإنكار، ربما تكون هذه الفكرة غير واقعية، هناك أسرى عظماء من أصحاب الرؤوس (الكشي) ورغم اعتقالهم متلبسين يرفضون الاعتراف، ومنهم من يعلو حتى يرفض ذكر اسمه بالتحقيق، والأمة بحاجة لأمثال هؤلاء العظماء وعلى الأجيال أن تحاكي هؤلاء الرجال الغرباء قبل أن يسألني المحقق بادرته بالسؤال: هل تم هدم بيتنا؟ هل مات الجندي الذي طعنته؟ أجابني أن الجندي لم يمت، لذلك لم يهدم البيت فشعرت براحة رغم قتامة الأجواء وظلم المكان، وبعد أن قرأت وتعلمت، علمت أن سؤالي لم يكن في مكانه، وكان عليّ أن أظهر أُنه لا يهمني هدم المنزل ولا اعتقال الأهل ولا موت الجندي؛ لأن ذلك سيتم تسجيله في الملف الخاص بي وسيضاف هذا السؤال بدائرة نقاط الضعف، للأسف الشديد إن كثيرًا من الأسرى يُبدي تأنفه من قتله لشخص يهودي، فالأمل بالإفراج يزداد صعوبة، وهذه عنصرية مقيتة يفرق فيها العدو الصهيوني بين دم ودم، وقد لاقت رواجًا لدى بعض النفوس المريضة حتى أصبحت على هذه الحالة التي أرادها العدو. لقد تركزت جلسة التحقيق حول سائق السيارة الذي أقلني من مدينة أم الفحم إلى العفولة محطة الاستشهاديين الأخيرة.

حاول المحقق مرات ومرات الربط بين السائق والمشاركة في العملية، لكنني نفيت ذلك، والحقيقة أن الرجل لم يكن سوى وسيلة قمت باستغلالها دون علمه، لقد كانت إفاداتي المتوالية تدور حول أن السائق لم يكن لديه أي صلة بي.

كانوا يعرفون ذلك، لكنهم لا يتعاطون كما نفكر، وإنما يجيبون على كل تساؤل ويضعون كل الاحتمالات ويبذلون جهودًا جبارة للوصول إلى الحقيقة حتى لو كانت كل الدلائل تشير إلى ما يتوقعون. استمرت جولة التحقيق أربع ساعات، ثم اقتادني السجان إلى الزنزانة الجديدة وبداخلها أسير آخر، سررت بوجوده ولكنه لم يتكلم معي إلا قليلاً وبات ليلة واحدة معي وتم بعدها إخراجه، تأكدت أنه جاسوس (عصفور)، وكان الهدف من وجوده الاطلاع على وضعي النفسي، وفي اليوم التالي تم تغيير مكان إقامتي إلى زنزانة أخرى وبداخلها شخص آخر لا يظهر على وجهه علامات الإرهاق والتعب.

زاد من شكوكي وجلس كسابقه دون أن يبادلني الحديث، كان يوحي إليّ بأنه كتوم لا يتكلم ويريد مني الكلام فتأكدت أنه عصفور، ثم جاء السجان ليبلغني للتجهز للسفر إلى المحكمة، كانت الرحلة تختلف عن سابقتها.

لقد أنهيت التحقيق لذلك كانت المعادلة تختلف عن سابقتها، اقتادني عدد من الرجال وبدت عليهم معالم الحقد والكراهية، وبعد أن قيدوني وضعوني داخل السيارة وحذروني من النظر من الشبابيك أو الجلوس

متكئًا على الكرسي أو محاولة رفع رأسي، لقد كانوا وجوهًا حقيقيةً للكيان دون قناع، ذُل وإهانة ولا إنسانية أو أخلاق أو قيم. كنت كلما حاولت استراق النظر أو الاتكاء على الجنب أو الخلف صرخوا بوجهي لأبقى على حالي، لذلك لم أرَ الكرمل وربما لم يرد هو أن يراني على هذا الحال من الذُل والإهانة، دخلت إلى قاعة المحكمة، وتم تمديد مدة الاعتقال من جديد، ثم رجعنا مسرعين إلى الجلمة.

لم أعد إلى زنزانتي وإنما إلى زنزانة جديدة، تواجد بها عدد من الأسرى. دخلت دون أن أتكلم سوى بالسلام وقد جال بخاطري كثيرًا من هؤلاء، من هم؟ وهل هم عصافير؟ أم أسرى حقيقيون؟ جلستُ جانبًا متكئًا على بطانية تفوح منها رائحة الرطوبة والعفن مستمعًا إلى حديثهم، وقد لفت صمتي انتباههم، وبدأوا بمجاذبتي الحديث فتعرفت عليهم، وكانوا موزعين على كل المدن والمحافظات. قال لي أحدهم بعد أن اقترب مني: بما أنك وصلت إلى هنا فيعني ذلك أنك أنهيت التحقيق، وقد علمت فيما بعد أن هذه الكلمات لا تصدر إلا من أشخاص يريدون أن يوهموني بأنني أنهيت التحقيق كي أتهيأ للذهاب إلى غرف العصافير، لذلك على الأسير أن يكون حذرًا من سماع مثل هذه الكلمات، فهي تمهيد للمرحلة الأخطر وهي مرحلة العصافير.

مكثتُ في هذه الزنزانة ثلاثة أيام بعد أن أصروا على معرفة قصتي، وحدثتهم بها حسب ما اعترفت في التحقيق لاسيما أنني كنت أتشوق للحديث، دخلت إلى زنزانة جديدة كان يتواجد بها أسير قاتم الوجه قليل الكلام لم يتحرك من مكانه وتكلف من رد السلام وقد زادني غمًا، فقد كنتُ أنتظر نقلي للسجن كما حدثني الأسرى الذين كنت عندهم في الزنزانة

السابقة، وكأن الأسير يريد كل مرحلة جديدة أن تكون أفضل من سابقتها، وهذا خطأ ولا ينبغي الشعور به.

جلست على فرشتي وحاولت النوم لكنني لم أستطع، وبعد حين سألته: كم يومًا أمضيت في التحقيق؟ وهذه من أكثر الأسئلة التي يتبادلها الأسرى فأجابني أن له ثلاثة أيام، عندها سارعت بلهفة وعفوية وبساطة فسألته: ما هي الأخبار في الخارج؟ حيث كانت الهبة الجماهيرية بأوجّها. قال لي بكل استفزاز: وهل يهمك ما يحدث بالخارج؟ أزعجني بجوابه وزاد من امتعاضي فكان أسلوبه مستفزًا ويشير لي بسوء الظن، قلت له: لي تسعة أيام ولم أسمع أي خبر، فقال لي: لا يبدو عليك أنك أمضيت تسعة أيام، فشعرك قصير وكذلك أظافرك.

بعد كلماته هذه تأكدت أنه يظن بي أنني جاسوس (عصفور) فلم أتكلم معه بعد ذلك، صحيح أنه أزعجني بأسلوبه، لكنني أدركت عند خروجي من عنده أنه تصرف على النحو الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فكان حكيمًا بذلك، وعلى الأسير أن يتصرف بهذا المنطق أثناء التحقيق وألا يعطي الأمان حتى لأقرب الناس إليه، فإن كان الصاحب أمينًا فلا يأمن جانب المكان؛ لأنهم يستخدمون وسائل التنصت.

في اليوم التالي خرجتُ إلى المحكمة برفقة أفراد النحشون هذه المرة، وهي البوسطة التي تم الاعتداء بها عليّ، وقد أخبرني المحامي خلال هذه الجلسة أنه ستقدم ضدي لائحة اتهام، وهذا ما حصل فقد وُجّهت ضدي محاولة قتل والدخول إلى الداخل الفلسطيني بدون تصريح وشراء سكين لاستخدامات غير مشروعة، عدت إلى الجلمة وهناك أخبرني السجان في

اليوم التالي أنني منقول إلى السجن، وكان الخبر من أجمل ما سمعت في التحقيق، فأنا أنتظر لقاء الأسرى والشوق يكبر كل لحظة ويوم، خرجت إلى الأمتناه وكانت مليئة بالأسرى الخارجين من التحقيق، تم إبلاغهم بالنقل إلى مجدو وأنا لوحدي إلى جلبوع، أصابتني خيبة كبيرة، لكن الخيرة فيما اختاره الله.

استمرت الجلسة ما قبل الأخيرة عدة ساعات، ولم يجر تعديل على لائحة الاتهام، ولم يتم التوافق على صفقة بين المحامي والنيابة العامة، اعترفتُ بالتهم الموجهة لي وأبديتُ أسفي على ما فعلته بناء على طلب المحامي، فالجلسة القادمة ستكون النطق بالحكم، كان المطلوب مني أن أتحدث وأي كلمة قد تزيد من الحكم لاسيما أن المحكمة قد عرضت عبر شاشات العرض الصور والفيديو التي التقطتها كاميرات الفيديو، كانت الصور تتكلم دون شهود وتنطق دون كلام.

وقفت وقلت للقاضي: سيادة القاضي، أنا أسمي طارق عبد الفتاح يحيى، عمري 21 سنة، ترتيبي الرابع بين الإخوة، لي أربعة أخوة وأختان، الوالد وضعه المادي متواضع والأم ربة بيت، حصلت في الثانوية العامة على معدل 84 ٪ علمي، ولم أتمكن من إكمال الدراسة الجامعية؛ بسبب الوضع المادي الصعب، اضطررت للمخاطرة والذهاب للعمل في الداخل دون تصريح لأستطيع تكوين نفسي، وفي ظل كل هذه الظروف الصعبة أرى على شاشات التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي يوميًا صور القتل والاعتقال والهدم والتخريب، أرى على شاشات التلفاز المستوطنين الحاقدين يحرقون الطفل أحمد أبو خضير دون أن يشكل عليهم أدنى خطر، أحرقوه وهو على قيد الحياة والتهمة أنه فلسطيني وابن القدس، ونرى

أيضًا صور جنودكم وهم يعتدون على أخواتنا وأمهاتنا ألا يولد كل ذلك انفجارًا بداخلك؟! والأمر الأخير الذي أود أن ألفت انتباهك له يا حضرة القاضي أنني لم أختر هدفي امرأةً أو طفلًا أو شيخًا كبيرًا مع أنني كنتُ أستطيع أن أستهدفهم، لكنني اخترت مجندًا يقتل ويعتقل وينكل بأبناء وبنات شعبي، لذلك أنا اليوم أمامك وسأنال عقوبة بكل تأكيد، لكن ما أطلبه منك أن تنظر بعين العدالة إلى قضيتي. تم إنهاء الجلسة بطلب من النيابة العامة بأن تكون أقصى العقوبة 25 عامًا، ثم طلب المحامي بأن تكون العقوبة لا تتجاوز خمس سنوات؛ لأنني أبديتُ ندمي وأسفي.

عدت إلى جلبوع لأمضي شهرًا كاملًا وأنا أنتظر يوم المحكمة الأخيرة، كانت توقعات الأسرى تقترب وتبتعد بتقديراتهم عن الحكم الذي وقع عليّ، خرجت إلى معبار سلمون قبل موعد المحكمة بيوم بعد أن حل التاريخ أخيرًا.

وصلتُ المحكمةَ وأنا أنتظر بقلق شديد والأهل يتضرعون إلى الله بأن يخفف الحكم وكذلك الأصحاب، دخلتُ إلى قاعة المحكمة قبل دخول القاضي، وما هي إلا لحظات حتى جاء الجلاد بسياطه بين يديه، صمت الحاضرون ونطق الظالمون.

وُجد طارق عبد الفتاح يحيى مذنبًا، فقد قررت المحكمة المركزية بمدينة الناصرة بتاريخ 15/ 11/ 2016م الحكم على المُدان 17 سنة ونصفًا وتعويضًا ماليًا للجندي لما أصابه من أضرارٍ مادية ونفسية بمبلغ 45,000 شيكل، سبقني القرار إلى السجن والأهل من خلال وسائل الإعلام العربية التي أشاعت وأعلنت الخبر.

خاتمة

لقد منَّ الله تعالى عليّ بإنجاز هذا العمل، أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفقت في إيصال رسالتي لكل من اطلع على هذا العمل. وفي ختام روايتي أؤكد للإخوة القُراء بأن هذا العمل مجرد محاولة وجزء يسير من رحم المعاناة وقصة واحدة من قصص أسرى هذا السجن المكلوم، وقد حاولتُ جاهدًا أن أقدِّم أفضل ما عندي بأسلوب مُيسر وشيق حتى تتضح صورة المقال.

أوصي إخواني الأسرى بكتابة المزيد عن معاناتهم وحياتهم داخل الأسر حتى تبقى قضية الأسرى حية في ضمائر كل الأحرار من شعبنا وأمتنا، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الصافات: 180 – 182]

» تعريف بالكاتب الأسير

- **الاسم:** طارق عبد الفتاح خالد يحيى.
- **مكان الإقامة:** بلدة العرقة – محافظة جنين.
- **تاريخ الميلاد:** 1995/01/08م.
- **الحالة الاجتماعية:** أعزب.
- **الإعتقالات:** 1.
- **تاريخ الاعتقال :** 2015/10/08م.
- **الحكم:** 17 عامًا ونصف.

الشهادات التعليمية:

- بكالوريوس خدمة اجتماعية – جامعة القدس المفتوحة.

» في هذا الكتاب

المؤمن الورع الذي آمن بالله وقضائه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وبفضل من الله ومنته تحولت هذه المحنة (محنة السجن) إلى منحة ربانية لدى الأسير الكاتب الذي بدأ العمل واستغل أيامه وسنين عمره داخل السجن في العمل والإبداع، وبدأت رحلة الإبداع بكتابة هذه الكتاب (على درب الحلبي) مسترشدًا ومُقتديًا بالشهيد البطل مهند الحلبي، عندما فتح لنا هذا الباب من أبواب الجهاد في سبيل الله.

لقد هدف الأسير الكاتب من هذا الكتاب إلى نقل تجربته الشخصية لإخوانه وأخواته خارج السجن؛ لاطلاعهم على مجموعة من الأمور الهامة التي جمعها في كتاب واحد، تحدث فيها عن قصته وعمليته التي نفذها خلال انتفاضة القدس، كما تطرق إلى قضية هامة يعيشها أبناء شعبنا في داخل السجن وخارجه ولا يزال لها الأثر الكبير على حياة شعبنا المجاهد المناضل وهي قضية الانقسام الداخلي.